عَصَب الحُب

1 شارع حسن أبو زيد – الزاوية الحمراء - القاهرة

01019978066 - 01117130961

Citybooks20@gmail.com

عَصَبُ الحُب | الطبعة الأولى

رواية – علي فلسطيني

رقم الإيداع 17044 / 2023

الترقيم الدولي 2 – 5 – 86851 – 977 – 978

جميع الحقوق محفوظة @

يمنع منعًا باتًا الاقتباس أو إعادة النشر سواء بالطباعة، أو النشر الإلكتروني، أو التصوير الضوئي للمحتوى، أو أي جزء منه إلا بإذن كتابي من الناشر والمؤلف. ومن يخالف ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية طبقًا لحقوق الملكية الفكرية المنصوص عليها في القانون.

تصميم: عبد الله أحمد – الإخراج الداخلي: City Books

رواية

عَصَبُ الحُب

علي محمد

(فلسطيني)

مـــدينة الأدبـــــاء

للنشـــر والتـــوزيع

في العام الدراسي الجديد.

تونس/تونس العاصمة.

٩/يونيو

9:00 صباحاً.

كُل التجارِب الأولى لا تُنسى، حـتى وإن زالَ شيءٌ من أثرِها فذِكراها على الأقل بـاقيَة، الملابس الجديدة في أول يَوم بالمَدرسة، رَهبة الامتحان الأول، ارتجافة القَلب عقب كلمة "أحبك" لأول مرّة، جمال وحرارة المواعَدة الأولى، لذّة البدايات لا تدوم طويلًا، استمتِع بها قَدر المُستطاع، ستُطبَع على ذاكرتك كنَقش فرعوني، تتذكّره وقَد ابتسمت كحنين للماضي، أو كحسرة على ما فات!

في أول أيام العام الدراسي الجديد وهو العام الأخير لي في جامعة تونس المنار، وقد كان على قادة الفرق استقبال طلاب السنة التمهيدية لتعريفهم بنظم الجامعة وتوجيههم لإعداد جدول محاضرات متوازن وتشجيعهم على الانضمام لفرق الهوايات إلى آخر ذلك من أمور، وفي هذا اليوم لمحتها من بعيد تتحرك تائهة كسفينة انكسرت بوصلتها في بحر متلاطم الأمواج وتحاول الوصول إلى أي شاطئ لترسو عليه، كلما حاولت أن تذهب إلى أحد الزملاء لتسأله تجده مشغولًا يدل تائهًا آخر، أخذت تتلفت لعلها تجد من يتلقفها، كنت في هذا الوقت أتحدث إلى طالبة جديدة وكانت تحاول بشدة استثارة اهتمامي حتى أمنحها كل ما لدي من معلومات وكأنني أحتاج إلى أي من ذلك لأؤدي واجبي وبالرغم من إنها كانت جميلة جدًا وذات قوام يتلهف إليه أي شاب إلا أن أسلوبها كان مكشوفًا ويكاد يكون مبتذل؟ لدرجة جعلتني أعطيها كتيب الإرشادات بشيء من الجفاء وأنا كل بضع ثوانٍ ألتفت حيث هذه الشاردة لأتأكد أن أحدًا غيري لم يربح شرف أن يكون أول من يتحدث إلى هذه الأميرة الرقيقة.

وبينما ما زالت الطالبة الجديدة تنهال عليّ بوابل من الأسئلة التي وصلت إلى حد أنها تريد رقم هاتفي الخاص لتسألني فيما بعد عن أي شيء يقف في طريقها وكانت خيبة أملها كبيرة عندما قلت لها أن هذا ممنوع، ووجدتني أعطيها طلب الالتحاق وقلم وأقول لها أن تأخذ وقتها في ملء هذه البيانات وأخبرتها أنها ستجد في الكتيب في

صفحته الأخيرة دليل ملء طلب الالتحاق، لم أدرك لماذا فعلت هذه بشكل مستعجل وعصبي جدًا إلا عندما وجدت أن بيني وبين الشمس والقمر مجتمعين متر واحد فقط؛ فلقد وصلت التائهة إلى قرب الطاولة المكدسة بالأوراق والكتب التي أقف ورائها وأخذت تنظر إليّ بعين الرجاء لعلها تجد في منقذًا لها ومن أنا حتى أرد هذا الملاك الشارد خائبًا، فقلت لها قبل حتى أن تسألني وكأنني أريد أن أخطفها قبل أن يفعل غيرى: سأكون معكِ خلال لحظات يا آنسة.

في هذه اللحظة بالتحديد خيل إليّ كأن الشمس قد أشرقت لتوها؛ فلقد بدت على وجهها أرق وأعذب ابتسامة رأيتها في حياتي وأطلت من عينيها اللتان أخفت زرقتاهما جمال السماء نظرة امتنان جعلتني أنسى نفسي.

أفقت من شرودي الذي يبدو أنه قد طال أكثر من اللازم على صوت في أذني كفحيح أفعى تهم بالوثب على فأر مبتل فلقد أكلت الغيرة قلب الطالبة التي كانت أمامي عندما لمحت الفتاة الجديدة ورأت تلهفي الواضح لأن أكون معها، فحاولت أن تستعيد انتباهي الذي لم أعره إياها قط فقالت: سيد جهمي! هذا طلب التحاق بالكلية هل لي بطلب التحاق بفرقتك أيضًا، كم أود أن نكون معًا لفترات أطول في المرحلة القدمة.

كنت سأدعي أن نموذج الطلب قد نفذ مني فبالتأكيد لا أريد أن تكون هذه الحية معي لأي فترات طويلة كانت أو حتى قصيرة لكنها

بادرتني بأن مدت يدها إلى النموذج الذي كان -للأسف- موجودًا على الطاولة التي أمامي فقلت لها أن الطلبات تقدم لشئون الطلاب بإدارة الجامعة في المبنى الكبير في الطرف الآخر من الحرم الجامعي وتعمدت أن أغفل عن أن أقول لها أن الغد هو آخر موعد لتقديم طلبات الالتحاق بالفرق آملًا أن تفوت عليها الفرصة، فأخذت تلملم أوراقها وهمت بالانصراف؛ لكنها لم تنسَ أن تحاول إثبات أنها لم تنهزم أو تنسحب أمام الأميرة الجميلة فمالت ناحيتي بشكل مبالغ فيه وكأننا نعرف بعضنا البعض منذ الطفولة لتقول لي بصوت مسموع وفي دلال:

نحن على موعدنا إذًا يا جهمي.

ولم أدري عن أي موعد كانت تتحدث لكنني كنت في عجلة من أمري حتى لا تضيع فرصة التحدث إلى جميلة الجميلات الواقفة خلفها تنتظرني فلم أناقشها، ثم استدارت ناظرة إلى الجميلة بنظرة استعلاء كأنها تقول لها أتحداكِ أن تقتربي منه.

نظرت إلى الأميرة الجميلة التي أصبحت أمامي الآن وشعرت فجأة كأن المكان من حولنا والذي كان مكتظًا منذ لحظات ولا تستطيع أن تتنفس فيه من شدة الزحام قد خلا فجأة فلم يبقَ حولنا ولا في الكون كله سوى هذه الفاتنة وأنا.

تحدثت الجميلة بصوت أشبه بتغريد البلابل:

- صباح الخير!

لم أرد عليها فلقد كنت غارقًا بها، لا أعرف ما الذي حدث لي أمام هذا الملاك المتجسد أمامي في صورة فتاة هي أجمل ما رأيت في حياتي؛ فأنا معروف في الجامعة كلها أنني حلم كل فتاة فمن حيث الهيئة فإن جسمي رياضي متناسق، كيف لا وأنا الحاصل على بطولة الجامعات في كرة القدم لثلاث سنوات متتالية.

ومن حيث الطباع فأنا المفضل لدي كل أساتذة الجامعة حتى من لم يدرس لي، ومحبوب بين زملائي، ومن حيث الذكاء فأنا من المؤهلين للتدريس في الجامعة بعد تخرجي وإن كان هذا ليس من طموحاتي، فكيف وأنا الآن أجد نفسي كمراهق يتحدث للمرة الأولي في حياته إلى فتاة.

تردد الصوت مرة أخرى أنه صوت قادم من الجنة وليس صوت إنسان، تردد الصوت في أذني عندما كررت قائلة

- صباح الخير!

فخرج الرد مني كأنني أنا المستجد وهي المرشدة: نعم.. أجل!

- ابتسمت مرة أخرى، وكأن حالتي في حاجة لأن تزداد سوءًا، فحاولت أن أجمع شتات نفسي وأتشاغل بالأوراق التي أمامي، ولقد كان صبرها على جميلًا أضاف إلى جمالها الأخاذ.

تمالكت نفسي أخيرًا فقلت:

- صباح الخير، ماذا يمكنني أن أقدم لك الآن؟

- أجابت بعذوبة لقد كنت أود أن أتعرف على مجموعة المواد التمهيدية للدراسات التجارية والاقتصادية.

لقد كانت سعادتي بالغة حقًا في تلك اللحظة فهذا هو تخصصي أيضًا، فوجدتني أبدأ في الحديث عن المواد والمحاضرات والكتب والتدريبات العملية، وحاولت الإسهاب والإطالة قدر الإمكان لأقف معها أطول مدة ممكنة ثم فجأة خطرت في بالي فكرة، لماذا لا أبتعد بها عن بهو الجامعة حيث نقف لأجد فرصة أفضل للتحدث إليها في أي موضوع المهم أن أبقى معها أكثر وأكثر فقلت لها:

- اسمحي لي أن أدلك على قاعات المحاضرات.

ولسعادتي البالغة وافقت فقمت من فوري وأشرت لها أن تأخذ طريقها إلى مدخل البهو وسأوكل مهامي إلى شخص ما وأذهب وراءها وفعلا أتممت ذلك ولم أنسَ أن آخذ معي كل الأوراق الممكنة والتي ستحتاجها وبالتأكيد لم أنسَ نموذج الالتحاق بفرقتي حتى أتمكن من الاقتراب منها أكثر وأكثر.

لحقت بها سريعًا أمام مدخل البهو وتحركنا بعيدًا عن الزحام شيئًا فشيء، وبدأت أتأملها أكثر فأكثر، كانت جميلة الملامح متناسقة

القوام بشكل يجعلك تشعر أن حتى خصلات شعرها قد خلقت وصنعت خصيصًا لها، كان شعرها داكنًا جدًا حتى أنك قد تظنه أسودًا لولا بريقًا من الحمرة تلمحه كلما انعكس ضوء الشمس عليه، كان رأسها يصل إلى كتفي تمامًا وكانت قسمات وجهها متناسقة كأنها قد خرجت لتوها من لوحة فنية لأعظم الفنانين فهذه عينيها زرقاء بلون السماء الصافية واسعة حتى تظنها أنها هي السماء فعلًا تطل عليك من وراء رموش لا هي الكثيفة المستفزة ولا الخفيفة المنفرة، يعلوهما حاجبان لولا أنني تحققت من شعيراتهما الناعمات لظننت أنهما مرسومان على صفحة جبينها الأبيض الذي ظهرت للشمس أثرها في الحمرة البادية يتصل بخديها المستديرين المشربين بنفس الحمرة التي لم تتمكن من إخفاء الحمرة الطبيعية لشفتين هما الأجمل على الإطلاق، ويعلوهما أنف رقيق دقيق بادي الاستقامة، كل تلك القسمات تراصت بدقة وإبداع على صفحة وجه جميل وبشرة رقيقة، أما جسمها فهو من ذلك النوع الذي يجذبك لتملأ عينيك من كل منحنياته لكن في نفس الوقت لا تستطيع أن تطيل النظر إليه لشدة توهجه فبدت رقبتها الناعمة كأنها مزهرية موضوعة بعناية على مائدة كتفيها المغطيين بهذا القميص الحريري اللامع.

تحركنا في اتجاه المبنى التعليمي الكبير وأخذت أشرح لها أن هذا هو المبنى الذي تنعقد فيه المحاضرات للمراحل المتقدمة والدراسات العليا، ثم أخذنا في التنقل في أرجاء الحرم الجامعي وأنا أشرح لها

كل ما سألت وما لم تسأل عنه، لا أدري كم مر من الوقت؛ فعقلك يتوقف عن حساب الزمن عندما تكون أمام إنسانة بهذه الرقة، وأجمل ما فيها إنَّها لم تشعرني إطلاقًا بأنها متململة من كثرة كلامي بل كانت دائمًا بادية الاهتمام بكل شيء أقوله مهما كان تافهًا وأنا متيقن من أنه كذلك لكنني أحاول أن أطيل الوقت معها قدر المستطاع، ساعدتها في ملء كافة بيانات طلب الالتحاق وعرفت أن اسمها ذكرى، وكم أحسست ببعض الغرور أنها قد التقطت اسمي أثناء حديثي مع الفتاة الأخرى.

ساعدتها في اختيار المواد وترتيب المحاضرات؛ بل وقدمت طلب الالتحاق بنفسي في شئون الطلاب حتى أن موظفة تلقي الطلبات، وهي تعرفني لدرجة أكبر مما أود أن تعرف الجميلة تفاصيل تلك المعرفة، نظرت إليّ نظرة ذات معنى ثم همست لي وأنا أسلمها الأوراق:

- هل هي فريستك الجديدة؟

في الحقيقة هي لا تدرك أنني أنا الفريسة وهي الصياد؛ ولكن خاب أملي؛ فلم أجد منها اهتمامًا بمجال فرقتي وهو تكنولوجيا المعلومات ولم أستطع أن أقنعها بالاشتراك فيها، وإنما اشتركت في فرقة أخرى تهتم بنشر الوعي المجتمعي تجاه بعض القضايا الإنسانية، ولقد فكرت في أن أنضم إلى هذه الفرقة، فأنا لي بعض المشاركات

المتواضعة في هذا الشأن؛ لكنني أحببت ألا أبدو مفضوحًا أكثر مما أنا فعلًا.

نحن الآن أمام البهو الكبير مرة أخرى، لقد أخذنا دورة واسعة في الحرم حتى عدنا مرة أخرى إلى حيث بدأنا وكان الزحام قد خف قليلًا فالساعة قاربت على الواحدة؛ ولكن دائمًا تجد من يعكر صفو اللحظات الجميلة؛ ففي هذه اللحظة وجدت أنثى العنكبوت واقفة أمام مدخل البهو، تلك الطالبة الجديدة التي سبق وأن أعطيتها الأوراق، وجدتها تنظر إلى ذكرى بنظرات كادت تنسفنا أو تحرقنا لكنني لا أعرف هل ظهر مني أي اهتمام بها يمنحها شعورًا بأنني قد صرت لها أو ما شابه، وجدتها تقترب منا متصنعة ابتسامة في ظروف أخرى كانت لتبدو فيها جميلة؛ لكني ما كان خلف الستار ظهر واضحًا، دخلت بيننا ووقفت في مواجهتي مولية جانبها لذكرى وقالت:

- أين كنت يا جهمي؟ لقد بحثت عنك طوال الوقت.

ما الذي يحدث الآن! إنها تدعونني جهمي هكذا وكأننا أصدقاء منذ مدة بعيدة!

لكنني لن أفعل شيئًا يظهرني بمظهر فظ أمام ذكرى، أخذت خطوة إلى الوراء حتى أبتعد عن الفتاة؛ فلقد اقتربت لدرجة أنها قد وضعت يدها على ذراعي المنعقد أمام صدري وحاولت الاقتراب من ذكرى أكثر التي أخذت تراقب الموقف ببساطة زادتها رقة، وواصلت الفتاة

حديثها وقالت: لقد انضممت لفريق تكنولوجيا المعلومات، كما أنني رتبت جدول محاضرات المواد المؤهلة للدراسات التجارية.

ثم أضافت وهي تنظر إلى ذكرى بنظرة تنم عن الحقد والغيرة:

- لكنني بالتأكيد أحتاج لمساعدتك في كثير من الأمور سواء للفريق أو للدراسة، ولا أظنك ستتخلى عنى!

- قلت لها باقتضاب شديد سأرى ما يمكنني فعله يا آنسة.
- ثم أضفت موجهًا كلامي إلى ذكرى: ها قد وجدت لكِ زميلة دراسة يا ذكرى، وحتى أحاول أن أعيد الفتاة إلى حجمها مرة أخرى سألتها: ما اسمك؟

ردت الفتاة بلهجة حاولت أن تداري فيها إحساسها بالانكسار: لقد قلته لك من قبل! إن اسمي شيماء لكن يمكنك أن تدعوني "سو" فكل أصدقائي المقربين يفعلون.

- فرددت عليها: سننظر في ذلك يا آنسة شيماء.
- لكن يبدو إنها لم تكن من ذلك النوع الذي يتقبل الهزيمة بسهولة فلم تتركنا وأخذت تتحدث إلي وتسألني عن أي شيء يخطر ببالها وبدأت أنا في جذب ذكرى إلى المحادثة لأخفف من حدة محاولات شيماء للاستحواذ عليّ ولسعادتي بدأت أجد من ذكرى بوادر للدفاع والهجوم المضاد وكنت أتحدث موليًا اهتمامي أكثر لـذكرى، ثم ودار

الحديث لمدة ربع ساعة ثم إذا بأحد الزملاء يسرع إلينا مهرولًا وهو يقول: جهمي! لقد تأخرنا على موعد اجتماع قادة الفرق.

- فاضطررت أن أستئذن للحاق بالاجتماع.

***

صداقات غير متوقعة

لم أرَ أي من الفتاتين طوال اليومين التاليين في الجامعة، ثم انتظمت الدراسة بداية من اليوم الثالث، كنت أحفظ الجدول الذي رسمته لذكرى فانطلقت فورًا إلى القاعة الخاصة بالعلوم النفسية، وكما توقعت رأيت ذكرى قادمة من بعيد تنشر الضياء حولها كالمعتاد، رأتني ذكرى ولوحت إليّ بيدها الرقيقة ثم توجهت ناحيتي قائلة..

- صباح الخير يا سيد جهمي.

ظهر عليّ بعض الضيق لكلمة "سيد" هذه فقلت:

لها صباح الخير يا آنسة ذكرى! هل سنتحدث دوما بهذه الرسميات! لقد ظننتنا تخطينا هذه المرحلة.

لم أتلقَ جوابًا ففي هذه اللحظة سمعنا صوتًا مألوفًا يتحدث بشكل مرح:

أين أنتِ يا ذكرى؟

- وقد كانت شيماء تتقدم من وراء ظهري ناحية ذكرى التي استقبلتها بترحاب شديد قائلة:

- لقد كنت أبحث عنكِ عندما رأيت.. جهمي، فوقفت لأسلم عليه.
- فالتفتت إليّ شيماء كأنها لم تلحظ وجودي قبل ذلك وتقول: آه! جهمي! اشتقت إليك.

- ابتسمت قائلًا: أهلًا شيماء! كيف حالك؟

وقفت شيماء بجوار ذكرى واحتضنتها من فوق كتفيها وهي تقول:

شكرًا لأنك عرفتني على ذكرى، لقد أصبحنا أفضل صديقتين.

ثم نظرت إليّ ببعض الخبث مواصلة:

لقد ساعدتني ذكرى كثيرًا في إعادة ترتيب جدول محاضراتي.

التفت إلى ذكرى مستفسرًا، فأكملت شيماء مغيرة دفة الحديث:

لكن ماذا تفعل هنا! أليس لديك محاضرات؟

- فأجبت: لا، إن اليوم كله تدريبات عملية، وهي لن تبدأ قبل الأسبوع المقبل وبالتالي فيومي كله خال فأحببت أن أحضر لأرى ماذا تفعلن، أقصد ماذا يفعل طلاب الفرقة التمهيدية.
- فرصة أن أسألك متى ستبدأ لقاءات فرقتنا؟
- قلت موجها كلامي إليها: قبل نهاية الأسبوع الثاني من الدراسة، سنرسل لكل الأعضاء الجدد بموعد ومكان

الاجتماع، لماذا لا تشغلين وقتك الآن قبل الانغماس في المواد الدراسية بإعداد مجموعة من الأفكار وقد أساعدك فيها.

لم أعرف لماذا قلت ذلك؛ لعلي أردت أن أثير غيرة ذكرى أو أنني كنت أحاول استثمار علاقة شيماء بها كي أتقرب منها أكثر.

لكن شيماء لم تلبث أن استثمرت هذه الفرصة لمصلحتها وقالت:

إن لدي بالفعل مجموعة من الأفكار التي كنت أود مناقشتها معك، لماذا لا أقابلك بعد المحاضرة الأولي فـذكرى ستكون لديها محاضرة أخرى وأنا سأكون متفرغة لمدة ساعتين.

ولم أستطع التراجع فقلت لها:

يبدو أنك متحمسة فعلًا، سألقاكِ هنا إذا بعد ساعتين.

على هذا انصرفت الفتاتان إلى محاضرتهن وبقيت أنا أتأمل الطلبة وهم يتحركون جيئة وذهابًا، واستمتع ببعض الشمس، مر الوقت سريعًا حتى فوجئت بأصابع رقيقة تنقر على كتفي فالتفت لأجد شيماء وقد ظهرت في غاية السعادة لما رأتها فرصة جيدة لأن تبقى معي على اِنفراد لبعض الوقت.

دخلت شيماء في الموضوع بسرعة وبدأت تتحدث كثيرًا عن مجموعة من الأفكار كان بعضها ممتازًا حقًا وقد رسمت لكل فكرة خطة وآليات ومراحل تنفيذ؛ بل إن منها فكرة قلت لها أنني سأستخدمها

في مشروع التخرج الخاص بي فتمازحنا في حقوق الملكية الفكرية وما إلى ذلك، وبالفعل بدأت أشعر ببعض الدفء تجاه شيماء وأخذت أتأملها بالرغم أنني لم أستطع منع نفسي من مقارنتها بـذكرى، كانت شيماء طويلة بعض الشيء، أطول من ذكرى ببضع سنتيمترات، وكان شعرها طويلًا يصل إلى خصرها وقد ربطته بشكل بدا طفوليًا جميلًا، لونه كستنائي يميل إلى الشقرة يبدو في الضوء كأنه ذهبي داكن، ملامحها لطيفة وإن كانت متجمعة بشكل ملحوظ في وسط وجهها مما جعل خديها يظهران بمظهر واسع بعض الشيء وتناثرت بقع النمش فيهما وإن لم يكن في أي من ذلك شيء منفر، كانت عيناها عسليتين وأنفها ممتلئ بالنمش، بإجمال المقارنة بينها وبين ذكرى ففي حين كانت ذكرى آية في الرقة والعذوبة والبراءة كانت شيماء مثالًا للفتنة والشقاوة والإغراء. وتعجبت كيف أصبح الفتاتان أصدقاء؛ ولعل كل واحدة منهن كانت تبحث في الأخرى عن إكمال ما تشعر بأنه ينقصها.

أفقت على صوت شيماء وهي تُفَرْقِع بأصابعها قائلة: هيا! نحن هنا الآن!

فاعتذرت لها أنني قد شردت قليلًا. فقالت: بقيت ساعة على نهاية المحاضرة، لماذا لا تريني الحرم الجامعي.

أحسست أن ذكرى قد أخبرتها عن المرة السابقة ولقد ضايقي هذا كثيرًا.

وقفنا وبدأنا نتحرك؛ لكن الغريب أن شيئا ما قد تحرك أيضًا في داخلي تجاه شيماء؛ فلقد تجمع أمامي جفاء استقبال ذكرى لي مع حرارة تواصل شيماء معي وضيقي من إخبار ذكرى لشيماء عن جولتنا مما جعلني أشعر أن ذكرى لا تبادلني الاهتمام فلماذا أترك من يسعى إلي وأبحث عمن لا يبحث عنى؟ وجدتني أميل إلى شيماء وبدأت كأنني أراها لأول مرة والغريب أنه عند هذه النقطة بدأت صورة ذكرى تتلاشى من أمامي ولم أعد أرى سوى شيماء.

لم أنتبه إلى مضي الوقت حتى وجدت ذكرى تجري وراءنا:

- أين كنتما؟ لقد فاتتك المحاضرة يا شيماء.

- ثم أضافت مداعبة: لا تدعي أحدًا يشغلك فإنني لن أعطيكِ محاضراتي لتنقليها.

فردت شيماء: إن جهمي معي، وهو لن يتركني أرسب في مجال تخصصه، أليس كذلك يا جهمي؟

ضحكت الفتاتان ببراءة؛ لكنني أحسست ببعض الضيق لأن ذكرى لم يبد عليها التأثر لقضاء شيماء كل هذا الوقت معي فعقدت عزمي على ما كنت أفكر فيه، لو أن ذكرى لا يهمها أمري فلماذا أهتم أنا!

ثم حدث ما ثبتني على عزمي؛ ففي هذه اللحظة سمعت صوتًا يقول: ذكرى! ها أنتِ ذا!

التفت إلي حيث الصوت لأجد تامر، وهو أحد طلاب الفرقة الأولي وعضو في فريق كرة القدم، يتقدم ناحيتنا.

فقالت ذكرى لتعرفنا على القادم الجديد الذي صار واقفًا بيننا:

- هذا هو تامر، لقد تعرفت عليه في محاضرة مبادئ الاقتصاد.
- ثم أشارت إلينا قائلة: هؤلاء هم جهمي وشيماء صديقاي.

مد تامر يده إلى شيماء أولًا وهو يقول في نفسه: يبدو أن هذه الدفعة هي الأجمل على الإطلاق.

ثم مد يده إليّ وقال: ومن لا يعرف جهمي حجاج عبقري الجامعة.

حاولت أن أخفف وقع كلماته على الفتاتين فقلت: لا تصدق كل ما تسمع فالمبالغات تضفي على الأشخاص هالات أسطورية غير حقيقية في بعض الأحيان.

ثم أضفت لأغير دفة الحديث:

لكنك أيضًا معروف، لقد رأيتك تلعب في نهائيات كأس الجامعات العام الماضي وأعجبتني تمريرتك الأخيرة التي أحرز الفريق منها هدف الفوز.

- قال تامر بحماس: أشكرك؛ لكن للأسف الناس لا تذكر إلا الذي يحرز الهدف فقط بالرغم أنها لعبة أحد عشر لاعبًا.

- بادرته متسائلًا: لكن ما لم أعرفه هو أنك قد أبقيت مواد من السنة التمهيدية.

تامر: إن مادة الاقتصاد ليست أساسية في تخصصي، ولم يكن عندي وقت مع كل هذه التدريبات العام الماضي فأجلتها إلى العام الحالي.

ثم نظر إلى الفتاتين بنظرة مراهقة واضحة ثم أضاف: إنها فرصة كي نتعرف على الزميلات الجدد عن قرب.

ضحكت شيماء وابتسمت ذكرى ابتسامة خفيفة.

- قالت شيماء: لماذا لا نلتقي دومًا؟ سيكون ظريفًا أن نكون فريقًا نحن الأربعة.

لم أعرف بماذا أشعر؛ فمنذ بضع ساعات فقط كان كل حلمي أن أكون بالقرب من ذكرى؛ لكن ليس بهذه الطريقة، ليس وذكرى مع غيري.

الصدمة

نُبالغ في التفكير، نُبالغُ بالتمنّي، نُبالغ بالحُلم، نُبالغ في كل شيء وفي النهايةِ يغلبنا النَصيب.

مر شهر منذ بدء الدراسة والأمور أخذت في الاستقرار على المسار الذي رسمه القدر لي؛ فأنا وشيماء أصبحنا أقرب من ذي قبل؛ بل إن الشائعات والتي لم أعرف مصدرها ولم أعرها اهتمامًا فلم تكن هذه المرة الأولى التي أكون محور شائعات من هذا النوع، فنحن نذهب إلى اجتماعات فرقة التكنولوجيا، في نفس الوقت كنت أرى ذكرى كلما جئت لأصطحب شيماء أو أحيانًا عندما تكونتا آتيتين إلى المكتبة ثم تتركها معي، ولقد توطدت علاقتها مع تامر لكنهما لم يكنا يخرجان ويظهران سويًا مثلي أنا وشيماء، مرت الأيام واقتربت الاختبارات التمهيدية وأخذنا نذاكر طوال الوقت وبالتأكيد لم يخلُ ذلك من مقابلاتي بشيماء وإن كانت رؤيتي لذكرى في أضيق الحدود حتى أنني لم أرها لمدة أسبوع كامل، وقد أسعدني ذلك؛ فلقد أشعرني ذلك أنني قد تخطيتها وهو ما مكنني أن أعطي ما بيني وبين شيماء ً ا كانت طبيعته- حقه من الاهتمام والرعاية.

بعد الاختبارات التمهيدية ونجاحنا جميعًا بعلامات مرتفعة، بدأت العلاقة بيني وبين شيماء تتطور سريعًا فصرنا نخرج سويًا خارج نطاق الجامعة إلى بعض المقاهي أو المطاعم المحيطة بالجامعة وذات مرة خرج معنا ذكرى وتامر، وبالرغم أن الفسحة كانت ظريفة إلا أنني لم أعرف لماذا شعرت ببعض الضيق هذا اليوم.

وقد عرفت عن شيماء أن لها خبرات سابقة بالنسبة للعلاقات، وهو أمر طبيعي بالنسبة لفاتنة مثلها، ولم أهتم أن أسأل عن المدى الذي وصلت إليه هذه العلاقات.

وفي إحدى العطلات ذهبنا إلى ضاحية قريبة من الجامعة تقع على شاطئ بحيرة تمتاز بدفء مياهها، كانت الخطة أن نمضي على شاطئ البحيرة طوال فترة الظهيرة ثم نتناول عشاءًا رومانسيًا في أحد المطاعم وأعيدها.

انطلقنا بسيارتي إلى الشاطئ وقفنا في منطقة مليئة بالناس والشاطئ قريب من شلال جميل فكان المنظر خلابًا حقًا، وبعد ساعة من اللعب والهو في كل مكان، جلسنا في مكان هادئ نرتاح قليل، وأنا أتحدث وأقول لها:

لقد حلمت بهذه اللحظة منذ رأيتك أول مرة يا ذكرى!

أفقت من غمرة هذه اللحظة على صوت شيماء وهي تصرخ في وجهي:

- ذكرى! أما زلت تفكر بها الى الآن!

أدركت خطأي وحاولت أن أعتذر لها.

- شيماء! لحظة! لم أقصد! لحظة من فضلك.

لكنها تحركت مبتعدة باتجاه الشاطئ فلحقت بها، ووقفت عند باب السيارة في صمت غاضب، لم أحاول أن أتحدث إليها فلقد خشيت أن أجرح مشاعرها أكثر، فجمعت حاجياتنا في عجالة وحشرتها في السيارة وفتحت لها الباب فدلفت إلى السيارة، تحركت بالسيارة.

لم نتحدث طوال الطريق، ونزلت أمام سكن الفتيات الخاص بالجامعة وانصرفت دون أن تنطق بكلمة أو تنظر وراءها حتى أنها تركت حقيبتها في السيارة.

انطلقت إلى مهجع الفتيان وغيرت ملابسي ثم خرجت لا أعرف أين أذهب حتى وصلت إلى المطعم الذي كنت أنوي دعوتها إليه في المساء.

وجدتني أذهب إلى المطعم لتستقبلني عاملة الاستقبال قائلة:

سيد جهمي! هل أدلك على طاولتك التي حجزتها اللية؟

لم أعرف ما الذي كنت أفعله على أي حال، فأشرت إليها بالموافقة، ثم نادت على عامل اصطحبني إلى طاولة معزولة يمكنها رؤية كل المطعم دون أن يراها أحد.

جلست وطلبت من العامل بعض الماء ومشروب بارد أحضره مسرعًا، ثم وجدت النادل يتقدم إليّ متسائلًا:

- هل ستطلب الآن سيد جهمي؟ أم ستنتظر رفيقتك؟

أجبته: لا، لن..

لكني قطعت حديثي؛ فلقد لمحت آخر ثنائي كنت أتمنى رؤيته الليلة، لقد رأيت ذكرى بصحبة تامر عند موظفة الاسْتِقْبالُ والتي كانت على ما يبدو تخبرهم أنه لا يوجد موائد خاوية الليلة.

أشرت للنادل قائلًا: هل ترى الشاب الطويل بصحبة الفتاة هناك أمام مكتب الاسْتِقْبال؟

- أجل يا سيدي!

- أريدك أن تذهب إليهما وتخبرهما أن طاولتهما موجودة بالفعل من دون أن تخبرهم أنني من طلب ذلك ثم قابلني بعد ذلك عند مكتب الاسْتِقْبال.

فعل النادل ما طلبته منه، وتسللت أنا من مكاني دون أن يلاحظاني ولمحتهما يتحركان بصحبة النادل باتجاه المائدة حتى حجبتهما عزلة الطاولة عن عيني، فوقفت بجوار موظفة الاستقبال موليًا ظهري إلى الطاولة حتى عاد النادل كما اتفقنا فقلت له وأنا محاولًا إخفاء نفسي عن طاولتهم قدر الإمكان.

- أرجو منك أن تهتم بطلباتهما جيدًا، ومن المهم جدًا ألا يعرفا عن تدخلي في الأمر.

ثم نفحته مبلغًا من المال وكذلك موظفة الاسْتِقْبال التي قالت بعد انصراف النادل وقالت: من الجيد أن يكون لك أصدقاء يهتمون بكَ.

فابتسمت لها دون أن أجيب وانصرفت.

***

الانتقام

مر شهر واقتربت امتحانات الفصل الدراسي الأول، لم أرَ شيماء طوال هذه الفترة سوى مرة واحدة حاولت فيها أن أعتذر منها لكنها نظرت إليّ نظرة باردة ثم تركتني دون أن تنطق بكلمة، ولم تعد تحضر الاجتماعات.

أما عن ذكرى فلم أرها مطلقاً، وتعجبت عندما علمت أنها وتامر قد انفصلا فلما سألته عرفت أن هذا حدث في نفس اليوم الذي رأيتهما فيه ثم احتد وهو يقول:

إنها إنسانة باردة المشاعر!

تصور يا صديقي أن نجد طاولة في ركن رومانسي بأرقى مطاعم المدينة ونتلقى خدمة تفوق الخمس نجوم، وهي ترفض حتى الكلام الرومانسي.

لم أرد عليه ولم أفهم سر كل ما حدث، وانشغلت بالامتحانات التي مرت شديدة فلم أكن -في ضوء كل تلك الأحداث- متهيئًا لها؛ لكن تمكنت من الحصول على علامات وإن كانت مرتفعة إلا أنها أصابت كل أساتذتي بخيبة الأمل، وبدأت إجازة نصف العام في بداية الأسبوع

التالي وخلت الجامعة إلا من بعض الطلبة الذين لن يسافروا إلى ديارهم لأسباب مختلفة وكنت منهم، وفوجئت أن ذكرى وشيماء على قوائم الطلبة المقيمين بالجامعة خلال إجازة نصف العام.

حاولت الاتصال بشيماء مرة أخرى؛ فالشعور بالذنب تجاهها يقتلني، ولقد ردت بعد عدة محاولات قلت:

- مساء الخير شيماء.

- مساء الخير.

لم أعرف ماذا يجب أن أقول فحاولت أن أبدو طبيعيًا وأنا أقول: إن الفرقة تفتقدك، ولدينا اجتماع يوم السبت في الثالثة بمقر الفرقة، ففكرت أنه بما أن الامتحانات انتهت وأنتِ بالجامعة فلماذا لا تحضرين؟!

أجابت منهية الحديث: سأرى بهذا الشأن، سلام!

ثم أغلقت قبل أن أجيب.

لم أعرف لماذا قلت ذلك فجميع أعضاء الفرقة غير موجودين؛ لكنها كانت فرصة أن أحاول الاعتذار منها وجهًا لوجه بدلًا من الهاتف.

حضرت شيماء الاجتماع وكنت قد سبقتها إلى هناك، جلسنا صامتين لبضع دقائق ثم قالت شيماء في ضيق ونفاذ صبر:

- ألن يحضر أحد!

- أجبتها: لقد حضر الجميع بالفعل.

تلفتت حولها ثم نظرت إليّ وقد بدا أنها فهمت حيلتي فقامت لتنصرف لكنني اعترضت طريقها قائلًا:

- شيماء! أرجوكِ! استمعي لي قبل أن تذهبي.

وقفت في صمت مُشيحة بوجهها بعيدًا عني فواصلت حديثي وأنا أقول لها: لقد كنت فعلًا معجبًا بذكرى في بداية الأمر؛ لكنني عرفتك أنتِ وتواصلت معكِ أنتِ، صدقيني لم يعد في قلبي أي مشاعر ناحيتها.. قاطعتني قائلةً: هذا واضح فعلًا بدليل أنك تذكرت اسمها هي وأنا معك.

لم أعرف ماذا يمكن أن أقول؛ فهي على حق، ما الذي دفعني أن أنطق اسم ذكرى بدلًا منها.

حاولت أن أنطق لكن الكلمات تعثرت في فمي، ثم حاولت أن ألتقط زمام الأمر، فنظرت مباشرة إلى عينيها واستجمعت شجاعتي وأنا أقول:

- شيماء! لا أعرف كيف أصلح لكِ الأمر؛ لكنني فعلا نادم، لقد أخطأت في حقك وأنا أقدم نفسي لكِ فأطلبي ما تشائين.

شيماء: وما الذي تظنه قد يعوضني جرحك لقلبي؟!

- أي شيء! أطلبي أي شيء!

- تعالى معي!

كنت سأسألها إلى أين لكن أحببت أن أترك لها فرصة الإحساس بالتحكم لعل هذا يرضيها، فتبعتها، خرجنا من مقر الفرقة، فسألتني:

أين سيارتك؟

فأشرت إلى الموقف الخاص بالطلبة وذهبنا وانطلقنا بالسيارة، وعند بوابة الحرم الجامعي أخبرتني أن أذهب إلى فندق معروف مطل على الشاطئ

وصلنا هناك ونزلنا من السيارة، تخطينا مكاتب الاسْتِقْبال إلى المصاعد، وصعدنا إلى الدور المخصص للأجنحة الشخصية وتوجهنا إلى أحدها، فتحت الباب ودعتني إلى الدخول.

اتجهت إلى صالة الطعام وأخرجت من الثلاجة زجاجة عصير وقدمتها لي، بعد أن شربنا قليلًا بدأت شيماء في التحدث قائلة: هل تعلم أن الجناح هنا مجهز بكل شيء؟ وأنا أقصد كل شيء.

نظرت إليها بتعجب؛ لكنني لم أنطق، فأشارت لأتبعها، دلفنا إلى غرفة لم أعرف بالتحديد هل هي غرفة جلوس أم غرفة نوم؛ لكن لفت نظري وجود سرير ميكانيكي موضوع بشكل مائل على حائط وعلى

الحائط المقابل مرآة كبيرة تصل من الأرض إلى السقف وبعرض أكثر من مترين؛ لكن الشيء العجيب هو مجموعة السلاسل المدلاة من أركان السرير فقلت:

- هل قررتِ معاقبتي بتقييدي إلى السرير؟!

نظرت إليّ ثم قالت: هل تعلم أنني كنت أنوي أن أسمح لك أن تفعل بي ذلك؟ ثم أضافت: لا، إنني أنتظر شخص ما.

- وهل أحضرتني هنا لأعرف أنك صرتي لشخص آخر.

- لا؛ لكن لأعرفك على الشخص الآخر.

- وما علاقة تعريفي به بأنك تريني هذه الغرفة؟

- لأنك ستبقى هنا في هذه الحجرة وتشاهدني معه من خلال هذه المرآة التي تكشف ما خلفها.

كانت قد وصلت إلى مفتاح الإضاءة فأظلمت الحجرة لتتبدل الصورة في المرآة -التي كانت فعلًا من ذلك النوع الذي يظهر ما خلفه- فظهرت حجرة نوم وردية اللون بسرير مخملي جميل.

نظرت إليها فبادرتني قائلة: لقد جرحتني بأن فكرت في غيري وأنا معك ولا يرضيني إلا أن تراني وأنا مع غيرك.

هممت أن أتحدث لكن رأيتها على الضوء المنبعث من خلفية المرآة تشير إليّ أن أصمت وأكملت:

يمكنك أن تختار أن تذهب الآن؛ لكن أنصحك بأن تبقى ففي الأمر مفاجآت كثيرة، وقد تحتاج أيضًا لأن أقيدك حتى لا ترتكب أي حماقة إذا رأيت ما سيحدث أمامك؛ يمكنني أن أعدل لك وضع السرير لتشاهد على راحتك.

صمتت شيماء لبرهة ثم أضافت: ما هو اختيارك الآن؟ ولتختار بسرعة فضيفي سيحضر في أي لحظة.

لم أعرف لماذا؛ لكنني وافقت أن أبقى، فقالت وهي تخرج: سأذهب الآن، وبالتأكيد ستطفئ النور فنحن لا نريد إزعاجًا.

ثم أغلقت الباب وراءها، وعدلت وضع السرير وأطفأت النور ثم جلست على السرير متكئًا انتظر، لم يطل انتظاري فقد سمعت جرس الباب وسمعت صوت شيماء ترحب بالقادم الذي لم أستطع أن أتبين صوته، بعد قليل رأيت الضوء في الحجرة المقابلة يضيء ودخلت شيماء وكان أول ما نظرت إليه هو المرآة لتتأكد أنني لست مكشوفًا لضيفها الذي دخل وراءها ولقد صعقت عندما رأيت آخر شخص كنت أنتظر رؤيته، لقد كانت ذكرى!

لم أصدق عيني وتسمرت في مكاني، لا يمكن أن تكون ذكرى من النوع الذي يحب النساء! أما ماذا يحدث الآن! مستحيل لا!

ثم تذكرت كلمة تامر [إنها إنسانة باردة المشاعر]، لا، مستحيل، لا بد أن هناك تفسير آخر لكل ما يجري، عاودت النظر عبر المرآة مرة ومرة ومرات عديدة، لا، لم تخني عيناي، إنها هي حقًا.

لكن ما هذا الذي يحدث هنا؟ ها هي شيماء جالسة على طرف السرير الوردي، محتضنة ذكرى الواقفة أمامها، خرجت بسرعة وأنا ألملم خيبة أملي، ركبت سيارتي وانطلقت مسرعًا كمن يهرب من جحيم حارق، ذهبت إلى الشلال وكانت الشمس قد غابت في الأفق أو تكاد، فجلست في السيارة أنظر إليها متعلقًا بأشعتها الأخيرة في هذا اليوم وكأنني ألتمس منها أن تأخذني معها إلى حيث تذهب، بعيدًا عن هذا المكان؛ لكنها تركتني وغابت وحدها.

أفقت لأجد الظلمة قد أحاطتني لا يكسرها سوى انعكاس بعض الأضواء على صفحة ماء البحر، كان يمكنني أن أرى الفندق الذي تركت الفتاتين به، وأخذت أنظر إليه بشدة كما لو أنني سأخترق الجدران وأعرف ما الذي يحدث بينهم، تحركت بالسيارة عائدًا إلى الجامعة وتوجهت إلى مهجع الفتيان، ونمت حتى الصباح.

***

الحقيقة المخفية

أن تبقى بعيدًا أفضل من أن تقترب.. فلا تُصبح أنتَ جُرحًا في قلب أحدهم ولا يَصير هو جُرحًا داخل قلبك.. ابقوا غُرباءَ جَميعًا.

استيقظت، وغيرت ملابسي ونزلت أركض كعادتي كل صباح، وعندما عدت وجدت أن شيماء قد حاولت الاتصال بي فعاودت الاتصال بها، بادرتني بالسؤال قائلة:

- كيف كانت ليلتك؟!

- كما رسمتها لي.

- إذًا فلتسمح لي أن أرسم يومك أيضًا!

قابلني في تمام الواحدة بمقر الفرقة، ثم أغلقت قبل أن تتلقي ردي.

لم أعرف ماذا كانت تنوي، ولم أتخيل أن يكون لديها ما هو أسوأ، فذهبت إلى المقر في الموعد، حضرت شيماء ووجهها تعلوه ابتسامة مزهوة، تطلعت في وجهي الذي كانت الحيرة بادية عليه وقالت:

- أتعرف شيئًا إن ذكرى حقًا جميلة.

- أجبتها بثقة ولا مبالاة: هنيئًا عليكما.

لم تتوقع شيماء أن أتمالك نفسي بهذه السرعة فحاولت أن تلقي في وجهي بعض الأخبار الأخرى فقالت: كما أنها أيضًا ساذجة.

نظرت إليها مستفهمًا، فأكملت:

لقد كنت أعرفك من قبل حتى أن تبدأ الدراسة؛ فلقد رأيتك في المباراة التي تحدثت لتامر عنها، وكان قد دعاني هو إليها، وغيرها من المناسبات مثل حفل الجامعة نهاية العام الماضي، كما أنه أخبرني عنك الكثير، نسيت أن أخبرك أنني وتامر أصدقاء منذ فترة.

قطبت حاجبي لكني لم أنطق، فتابعت وهي تقول:

في اليوم الأول توجهت إليك مباشرة، وحاولت أن أتحدث إليك وكان في مقدوري أن أفعل حتى ظهرت هي وخطفتك منى، ولقد رأيتكما تذهبان في النزهة التي قمتما بها.

- أتقصدين أنها لم تخبرك عن تلك الجولة!

- لا.

- ثم واصلت قصتها: بعد أن تركتنا أنا وهي، قررت أن أنهي ما بينك وبين أميرتك وبدأت في تنفيذ خطتي، فأخذت أتحدث عنك كأنني أعرفك منذ زمن، وكيف أنك تظاهرت بأنك لا تعرفني حتى لا يبدو في الأمر محاباة، ولأثبت لها

أنني أعرفك حقًا عرفتها على بعض الطلبة الذين عرفت من تامر أنهم يعرفون عنك الكثير والذين أكدوا لها رواياتي عنك بطريقة عفوية؛ لكن الورقة الأخيرة كانت تامر نفسه فأخبرته بموعد المحاضرة وأن ذكرى ستكون وحدها حتى يتحدث إليها، وأنا أعرف أنه يمكنه الإيقاع بها.

بدأ الغضب يتملكني وكان ذلك واضح على وجهي بشدة؛ لكنها أكملت حديثها: ثم بدأت تتغير معاملتك معي فأطلقت بعض الشائعات عن علاقتنا حتى أتأكد من أنه لن تأتي أخرى لتأخذك منى، ولأثبت لذكرى صدق الشائعات التي لم تعرف أنني كنت مصدرها كنت أتعمد أن تأتي معي إلى المكتبة أو أن أبقيها وأنا أعلم أنك آت لتأخذني ثم أحكي لها فيما بعد عن بعض مغامراتنا معًا.

كنت أستمع في غضب وذهول وهي تكمل وتقول: ثم كان ذلك اليوم المشئوم، فقررت أن أنتقم منك لجرحك وتجاهلك لمشاعري، كنت سأستدرجك لترى تامر وذكرى؛ لكن هذا الأحمق تسرع وترك ذكرى في نفس الليلة ثم حكى لي أنه حاول ملاطفتها لكنها صدته ببرود، فقررت أن أجرب طريقة أخرى لعلها تكون من ذلك النوع الذي يفضل صحبة الفتيات، وحيث أنني لا أمانع في بعض الحنان الأنثوي فبدأت أتودد إليها بشكل خاص ودعوتها إلى الجناح الخاص في إحدى العطلات وكانت حقًا إجازة رائعة حتى أنني أحببتها فعلًا؛ لكن كان عليّ أن أنتقم منك، فما كان إلا أن انتظرت اتصالك وقد

فعلت، والباقي تعرفه أنت، وبالتأكيد تفهم الآن لماذا لم أتركك تراني أنا وذكرى.

- حاولت أن أبدو هادئًا وأنا أسألها: لكن لِمَ فعلتِ كل ذلك؟!
- أجابت باستغراب وكأن الجواب كان يجب أن أعرفه من نفسي: لأنني أحببتك أنت يا جهمي.
- لم أتمالك نفسي فصرخت في وجهها: عن أي حب تتحدثين؟
- لقد تطفلتِ على حياتي وأوقعتِ بريئة في شباكك وحطمتِ ما كان يمكن أن يكون بيني وبينها أو حتى غيرها بشائعات مكذوبة، فكيف تدعين ذلك الحب!
- قالت متجاهلة كلامي: أتعلم شيئا؟!
- لقد كنت مستعدة لأن أغفر لك لو أنك قلت لي بالأمس "أحبك"، كان من الممكن ألا تعرف أي شيء عن كل ذلك لو أنك أوضحت لي هذا؛ لكن كل ما كان يهمك بالأمس هو أن تريح ضميرك، لقد منحتك فرصتك الأخيرة عندما سألتك "ماذا تظن يعوضني؟" وكان يكفيني كلمة " أحبك" لكنك قلت "أي شيء"، وها أنا ذا آخذ منك كل شيء.

- أنتِ مجنونة بكل تأكيد!

- أجل، مجنونة بكَ، أو على الأقل كنت كذلك، لقد عرفتك من حكايات تامر فأحببتك، ورأيتك في أكثر من مناسبة فعشقتك، ولقد حاولت أن أقترب منك أكثر من مرة لكنك

لم تشعر بي مطلقًا، ثم كانت فرصتي في بداية الدراسة لأفوز بك فجاءت ذكرى وخطفتك مني.

- أنا لم أكن معكِ فكيف تخطفني منك!

- وها أنت ذا تهيننني مرة أخرى، لقد جئت مبكرة في هذا اليوم وانتظرت الفرصة لأقدم أوراقي معك أنت وحاولت أن أتقرب إليك بكل وسيلة ممكنة، حتى أنني أخبرتك اسمي وأخبرتك أننا التقينا من قبل لكنك لم تعر هذا اهتمامًا بل وسألتني عن اسمي مرة أخرى أمام ذكرى؛ لكن هذا لا يعني أنها خطفتك مني.

وقفت محاولًا إنهاء هذا الحوار المجنون خشية أن يتطور إلى ما لا يمكن التراجع فيه فقالت: إلى أين؟

- إلى أي مكان بعيدًا عنكِ.

- ثم تابعت : آنسة شيماء، أشكر لكِ مجهوداتك في فرقة التكنولوجيا، أراكِ لاحقًا في الاجتماعات التي ستعاود الانعقاد بعد الإجازة.

وهممت بالخروج فأجابت في غضب: بل أنا من سيترك الفرقة، كم أكره كل هذه الإلكترونيات الغبية!

وسبقتني هي إلى الباب وصفقته بعنف خلفها.

الشعور بالراحة

يؤسفني كوني من النوع الذي لا تَهون عليه العشرة.. ولا الأيام، لا يتخطى ما عاشه بسهولة، لا يتخلّى عن ذكرياته مهما كانت تؤلمه، يَتغذّى على الماضي، يَبقى عالقًا بهِ فتراتٍ طويلة، يَتذكرّ كثيرًا حتى أتفه التفاصيل، وتبقى في رأسه تساؤلات، لماذا تُركت؟ لماذا هُنتُ؟ لماذا يكون التخلّي عنّي سهلًا بينما يصعبُ عليّ أن أتخلّى حَتى عن رسالةٍ تَخصهم! والأصعب من كل هذا أنهُ لا ينسى بسهولة.. وأحيانًا لا ينسى أبدًا.

للمرة الأولي منذ فترة طويلة أشعر بالراحة لكن في نفس الوقت أشعر بأنني كنت غبيًا مغفلًا؛ فكيف سمحت لفتاة مراهقة ومريضة كشيماء أن تلعب بي؟ أخذت أذرع مقر الفرقة جيئة وذهابًا لأكثر من ساعة مر فيها أمامي شريط أحداث الأشهر السابقة منذ رؤيتي للفتاتين للمرة الأولى مرورًا بتقلبات العلاقة من ذكرى إلى شيماء ووصولًا إلى هذه النقطة، أخذت أعيد ترتيب الأحداث، فكان بعضها يتصل بالبعض الآخر على نحو عجيب، كنت أظن أن شيماء قد سردت كل شيء لكن ما زال في القصة فجوات كثيرة وأنا لا زلت لا أعرفها.

هل أنا مستعد لأن أكتشف المزيد أم أن ما عرفته حتى الآن كافٍ لأتخذ قراري!

وماذا يمكن أن أقرر أكثر مما حدث بالفعل؛ فـشيماء قد ذهبت ولا أظنها ستعود مرة أخرى وهذا شيء جيد، كما أنها ليست المرة الأولى التي أكون فيها بطلًا لشائعات عاطفية فلماذا أسعى الآن لنفي شيء لم أكترث لنفيه من قبل؟ إنني إن فعلت سأثبته أكثر، وسمعتي في الجامعة لم تتأثر فما زلت الفتى الذهبي المحبوب من الجميع بل قد تضاف هذه القصة إلى سجلي العامر بالأساطير، أما ذكرى وشيماء وما الذي حدث في الفندق، عند هذه النقطة الأخيرة بالذات بدأت أعاود التفكير مرة أخرى، إن ذكرى لم يبدو عليها مطلقًا في المرة الأولى أنها تنجذب للنساء؛ بل بالعكس لقد كانت أنثى دافئة رقيقة، ولا يمكن أن يخونني إحساسي إلى هذه الدرجة لكنني متأكد أنني شعرت منها بميل حقيقي تجاهي، كما أن شاب بخبرتي لا يمكن أن ينخدع بسهولة ثم تذكرت نجاح شيماء في خداعي طوال هذه الفترة فازداد غيظي، ولقد خدعت ذكرى أيضًا فأوهمتها بأن علاقتنا قديمة.

وفي النهاية وصلت إلى نتيجة واحدة وهي أن الحلقة الناقصة والحقيقة التائهة في هذا كله هي موقف ذكرى من كل تلك الأحدث الغريبة، هل أُقْدِم على مواجهة ذكرى لأعرف جانبها من القصة أم أترك الأمور عند هذا الحد؟ فما الذي يمكنني أن تضيفه معرفتي لأمور أكثر.

خرجت من مقر الفرقة وأنا عاقد العزم على أن أواجه ذكرى لكن سأترك تحديد الوقت والوسيلة لمجريات الأحداث، وفوجئت بأن الظلمة قد حلت في كل مكان، يبدو أنني مكثت طويلًا فلم أشعر بمضي الوقت، ذهبت إلى السكن الجامعي ونمت حتى الصباح؛ لكن شتان بين الليلة والبارحة؛ فأنا الآن أشعر كمن يقف على أرض صلبة ويعرف ما الذي ينتظره أمامه أما الأمس لقد كنت كمن يهوى من حالق ولا يرى الأرض أسفل منه.

استيقظت أكثر نشاطًا اليوم لِكي أقوم بالرياضة الصباحية كالمعتاد، وحينَ أرى بعضَ كِبار السِنّ يُعانون من مُشكلةٍ في النَظر وضعفٍ في البَصر وأنا أمارس الرياضة كل صباح، أشعُرُ بالخوفِ كثيرًا، أتدركُ ماذا يعني أن يخونكَ ما كنت تعتمدُ عليه بكلِّ خطوة؟

أن تخونك عيناك في يوم ما! الأمر مرعب في الحقيقة.

ومرت بقية الإجازة ولم أرَ أي من الفتاتين، ومع بداية الفصل الدراسي الثاني أخذ الأساتذة يحثونني على تعويض ما خسرته في الفصل الدراسي الأول فكانوا يطلبون مني أبحاثًا وتقارير أكثر من زملائي ويشجعونني ويمدونني بالمراجع المتقدمة، ثم بدأ مشروع التخرج فشعرت بضغط هائل من العمل.

***

مشروع التخرج

مرت الأيام ولم يكن لطلاب السنة النهائية اختبارات تمهيدية فما زال علينا إتمام المشروع، عرفت أن ذكرى نجحت بتفوق في الاختبارات التمهيدية كما حصلت شيماء على علامات مرتفعة؛ لكني لم أكن أهتم، ومضى الوقت المتبقي من العام وأتممت المشروع وقد استخدمت بالفعل كثير من الأجزاء التي أشارت بها شيماء من قبل فهي رغم كل شيء فتاة ذكية جدًا، كيف لا وقد استطاعت خداعي، وجاء وقت تحكيم المشاريع وحصل مشروعي على المركز الأول.

بدأ التجمع والاستعداد في الثامنة صباحًا وبدأ التحكيم في التاسعة، كانت المشاريع يتم تحكيمها في قاعة مؤتمرات الجامعة وكان يومًا مشهودًا بالفعل؛ فطلاب السنة النهائية كلهم يحضرون بملابس رسمية ويقدم كل واحد منهم نبذة عن مشروعه في فترة لا تجاوز خمس دقائق، ثم يبدأ في عرض خطة البحث والتجارب التي تمت والنتائج النهائية في عشرة دقائق أخرى، ثم تبدأ اللجنة المكونة من أساتذة التخصص في مناقشته لمدة خمس عشرة دقيقة أخرى، كل ذلك أمام جميع أعضاء هيئة التدريس الذين يحق لهم أيضًا سؤال من يشاؤون من الطلاب.

يحضر المناقشة كذلك من أراد من طلبة السنوات الدراسية الأخرى، وعادة ما يكون أكثر المهتمين هما طلاب الفرقة المتوسطة ليعرفوا ما ينتظرهم في العام المقبل يليهم طلاب الفرقة الأولى وعادة لا ترى لطلاب الفرقة التمهيدية أثرًا في مثل هذا الجمع؛ لكنني لمحتها في القاعة، كانت تجلس في ركن بعيد وأظنها كانت تحاول ألا تلفت الأنظار إليها، لقد حضرت ذكرى تحكيم المشاريع! كان كل ما يهمني في هذه اللحظة هو أن أتم مشروعي وأكلل جهودي طوال أربع سنوات بنجاح باهر؛ لكنني لم أستطع أن أمنع نفسي من التساؤل عما تفعله ذكرى هنا، هل هو اهتمام الطلاب المتفوقين المعتاد أم أن الأمر فيه أكثر من ذلك، كذلك فإن اهتمامها كان واضحًا عندما كنت أناقش مشروعي أو هكذا تخيلت.

وفي نهاية اليوم كانت مراسم إعلان النتائج، فقال عميد الكلية وهو يعلن حصولي على المركز الأول: بعد بداية محبطة للجميع ثم عودة قوية إلى سباق التفوق، فإن المركز الأول من نصيب جهمي حجاج.

وضجت القاعة بالتصفيق وكنت في هذه اللحظة كمن هو على قمة العالم، صعدت إلى المنصة وسلمت على أساتذتي الذين استقبلوني بحفاوة بالغة وقال لي عميد الكلية وهو يصافحني: يكفي أن تحضر الاختبارات التحريرية لتنجح لكن لو لم تحصل على أعلى الدرجات سأقتلك بنفسي.

أخذت الأمر على سبيل الدعابة المعاتبة على تقصيري في الفصل الدراسي الأول وعلى العموم لم أكن أنوي أن أقصر مرة أخرى، انتهت المراسم في تمام السابعة مساءًا، وكان طلاب السنة النهائية قد أعدوا حفلًا في قاعة الاحتفالات فبدأ الكل ينصرفون استعدادًا للحفل في الساعة التاسعة؛ لكنني لم أنسَ أنها كانت هنا فبحثت عن ذكرى في كل مكان حتى لمحتها جالسة في مكانها، توجهت إليها وجلست إلى جانبها.

كانت الضجة في القاعة قد بدأت تخفت تدريجيًا مع انصراف الجميع فقلت:

- ما رأيك؟
- جيد.. وعظيم.
- فقط؟!
- لا أعرف ماذا أقول!
- قولي "موافقة"
- موافقة على ماذا؟
- على الذهاب معي إلى حفل الليلة.

- أليست لك رفيقة للحفل؟

- لا، هل توافقين أن تأتي معي؟

- نعم؛ لكنني غير مستعدة.

- أنتِ مستعدة بما يكفي.

لم أترك لها فرصة للتفكير أو الرفض وأخذتها من يدها وتحركنا خارجين من القاعة وتوجهنا مباشرة إلى قاعة الحفل التي كانت في الناحية الأخرى من الحرم الجامعي، وجدنا البعض قد وصل بالفعل إلى هناك وكان كثيرون على حالتهم لم يغيروا ثيابهم، دخلنا القاعة وكانت بعض الموسيقى تصدر من جهاز التسجيل فعادة لا نحضر فرقة موسيقية في هذا الحفل وإنما في حفل التخرج بعد النتائج النهائية؛ فهذا الحفل مجرد وسيلة للترفيه والتسرية بعد عدة أشهر من العمل المتواصل، جلسنا على أبعد طاولة في طرف القاعة وأحضرت بعض المشروبات، شربناها في صمت، كان يجب أن يكسر أحدنا جدار الصمت البارد فبدأت الحديث أولًا:

- كيف حالك؟

- بخير، وأنت؟

- بخير.

ثم أضفت حتى لا ينقطع الحديث: لقد علمت بحصولك على المركز الأول في الاختبارات التمهيدية، تهاني.

- آه! أجل! أشكرك، وتهاني لك أنت أيضًا، لقد استحققتها عن جدارة، إن مشروعك كان مبتكرًا كما أن عرضك للمشروع كان رائعًا حقًا.

- أشكركِ.

وحاولت أن أغير هذا المجرى الرسمي للحوار فسألتها: ماذا تخططين للصيف، أظنك ستمضينه مع أسرتك.

- بالتأكيد! فأمي ليس لها غيري خاصة بعد وفاة أبي.

- آسف لسماع ذلك.

- لا عليك.

- لكنكِ لم تذهبي إليها في إجازة منتصف العام!

- لقد كنت أساعد صديقة لي في محنة.

- من تقصدين؟!

- شيماء، لقد كانت متأذية جدًا بعد انفصالكما، وذهبت معها إلى الفندق التي حجزته هي بنفسها لكِ نقضي إجازة نفس العام لأنها كانت حزينة وتريد مني أنا أبقى معها.

- ولكنكِ كنتي قد انفصلتِ عن تامر لتوك أنتِ أيضًا، أليس كذلك؟

- بلى؛ لكنني وتامر لم نصل إلى الحد الذي وصلتما إليه.

- ذكرى أنا لا أعرف ما الذي سمعتيه بالتحديد لكن..

- لا عليك، لست في حاجة لأن تحكي لي أي شيء.

- بل أريدك أن تسمعيني جيدًا، إن ما كان بيني وشيماء كان مجرد انجذاب نتيجة رد فعلك معي يوم رأيتك مع تامر.

- ماذا تقصد؟ لقد كنت أنت وشيماء على علاقة من قبل ذلك بكثير!

- أؤكد لكِ، لقد رأيت شيماء للمرة الأولى قبل أن أراكِ بدقائق فقط.

- لكن شيماء أخبرتني أنكما..

- لا تصدقيها؛ لكن أخبريني شيئًا واحدًا أريد أن أعرفه وأتأكد منه.

- ما هو؟

- هل كان لديك تجاهي مشاعر مثل التي كانت لديّ تجاهك.

صمتت ذكرى مطرقة إلى الأرض وكانت هذه هي الإجابة التي أنتظرها فوجدتني أرفع وجهها ناظرًا في عينيها مباشرة وأقول لها:

جهمي: أنا أحبك.

ذكرى في خجل: وأنا أيضًا.

***

بداية جديدة

وما نهايةُ الشيءِ إلّا بداية لِشيءٍ آخر، ولعلّ نهايتهُ تكونُ بدايةَ خيرٍ تَستحقه، فلا تبتئس، لقد مر عامي الأخير بالجامعة ككابوس مخيف كاد أن يكلفني مستقبلي، أحببت إنسانة رقيقة وأحبتني إنسانة مجنونة كدت أخفق في دراستي ثم حصلت على المركز الأول في المشروع وأخيرًا ها أنا ذا أنظر ورائي وقد اجتزته بنجاح باهر وتجلس إلى جواري في حفل التخرج الإنسانة الأجمل والأرق على الإطلاق.

وقف عميد الكلية معلنًا ترتيب الطلاب لتسليمهم شهادات التفوق، وكان ترتيبي العام هو الثالث، وقفت لأصعد إلى المنصة مرتديًا الرداء الأسود، ولم أنسَ أن تتلاقى يدي بيد محبوبتي في لمسات تحمل أجمل معاني الحب والتهنئة والسعادة.

قال لي العميد وهو يصافحني ويسلمني الشهادة: كنت أتوقع أن تكون الأول لكن ما زال أمامك فرصة لتكون ضمن هيئة التدريس.

فأجبته: هذا شرف لي! ولقد فكرت فعلًا في الأمر! سآتي إلى مكتبك سيدي قبل نهاية الأسبوع لأستشيرك في مخططاتي القادمة.

- وأنا في انتظارك.

نزلت عن المنصة بعد أن رفعت يدي بالتحية لكل الزملاء والحضور في القاعة، لأعود إلى مكاني بجوار ذكرى التي استقبلتني يدها بضمة خفية ليدي تهنئني مرة أخرى.

انتهت المراسم وانصرف الأساتذة عدا بعضهم ممن يحبون مشاركتنا في الاحتفالات وهم عادة الأصغر سنًا في هيئة التدريس لتبدأ بعد ذلك الحفلة الكبرى، كان ملحقًا بالقاعة وحدة كبيرة لتغيير الملابس فذهب بعض الطلبة وخاصة الطالبات لارتداء ملابس السهرة، وكذلك فعلت ذكرى، وقفت في مدخل القاعة أنظر إلى الأفق الذي كان ما يزال ملونًا بألوان الغروب، وجدت يدًا تخبئ عيني من ورائي فابتسمت قائلًا: ترى لمن تكون تلك الأيدي الرقيقة؟

فأجابني صوت مألوف على الأقل لم تنادني بغير اسمي هذه المرة.

التفت مسرعًا لأجد شيماء أمامي تمالكت نفسي وسألتها: ماذا تفعلين هنا؟

- أجابت بهدوء وبساطة: لقد دعاني سيف، شقيق تامر، إلى الحفل.
- ثم أكملت: تهانيّ! لقد كان حفلًا رائعًا! ماذا كان يقول لك العميد على المنصة؟
- تجاهلت سؤالها وأشرت إلى شخص قادم من بعيد مرتديًا حلة سوداء.

- آه! ها هو سيف، أظنه يريدك أن تنضمي إليه.

فهمت ما أرمي إليه لكنها أشارت بدورها إلى ذكرى الآتية هي الأخرى وقالت تقلدني في تهكم.

- آه! ها هي ذكرى، أظنها تريدني أن أنضم إليها.

قطع إحساسي بالضيق وصول سيف وذكرى فتبادلنا التحيات والتهاني ثم قالت ذكرى:

- هلا دخلنا إلى القاعة؟ فأنا أشعر ببعض البرد.

- فتقدمت شيماء وأخذت ذكرى من ذراعها قائلة:
- أجل هيا بنا.

تحركنا وكانت الفتاتان في المقدمة وأنا وسيف وراءهما داخلين إلى القاعة حيث أشارت شيماء إلى مائدة قريبة من وسط القاعة وأخذتنا إليها، جلسنا حول المائدة وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث، كنت أشعر بملل وضيق شديدين فلم تكن تلك مخططاتي لليلة، بدأت الموسيقى فأسرعت بدعوة ذكرى للرقص فقامت معي قاطعة حديثها الدائر مع شيماء رقصنا طويلًا حتى قالت ذكرى:

- لقد تعبت، دعنا نرجع إلى المائدة.

- دعينا لا نرجع إليها.

- إلى من؟!

- لا أريد أن نجلس مع سيف وشيماء، أريد أن أجلس معكِ وحدنا.

- لِمَ لا؟ فلنجلس في تلك الطاولة هناك.

وأشارت إلى طاولة في الناحية الأخرى من القاعة بالرغم أنني كنت أرغب في طاولة أبعد وأكثر عزلة، جلسنا وأخذت أتحدث إلى ذكرى محاولًا أن أوجه الحديث إلى حياتنا معًا وأن أتودد إليها لكنها ظلت متضايقة فسألتها:

- ما بكِ حبيبتي؟

- لماذا لم نعد إليهما؟

فقلت وقد شعرت أن الحديث قد دخل في المنطقة التي كنت أتحاشاها: لأنني أريدك لي وحدي الليلة.

- ألم تقل لي أنه لا يوجد بينكما شيء؟

- بلى؛ لكن ألم تقل هي لكِ أنه بيننا شيء؟

- بلى، وهذا هو ما يحيرني.

- كيف؟!

- إذا لم يكن بينكما شيء، فلماذا تتحاشى الجلوس معها؟ وإذا لم تكن تريد الجلوس معها، فلماذا كنت واقفًا معها عند المدخل؟

- حبيبتي! أتغارين عليّ؟!

- وهل ما زلت تسأل؟

- وهل أحتاج أن أسأل أيضًا عن حبك لي؟

أطرقت ولم تجبني.

- ماذا فعلت بي؟ لم أعد أستطيع النوم ولم أعد أطيق الابتعاد عنك لحظات؟

- إنه الحب يا ذكرى، متى سأقابل والدتك؟

- دعني أفاتحها أولًا، لقد تقبلت بالكاد فكرة انتقالي للجامعة بعيدًا عنها.

واتخذ حديثنا منحنى جادًا بعض الشيء؛ لكنني لا أمانع ما دمنا نناقش مستقبلنا معًا فقلت لها:

وماذا كانت تتوقع؟ أن تبقي معها دومًا، أظنها مستعدة لذلك، فقط عليكِ أن تفاتحيها لتعرفي.

- حسنًا فقط امنحني بعض الوقت.

- لقد كانت أسألُ نَفسي سُؤالَ ولم أستطع العثور على إجابة ذاك السؤال إلى الآن.

- ما هو السؤال، وما هي الإجابة؟

- هل لو التقينا يومًا ما في زمان آخر مختلف؟ هل ستتلألأ النُجومُ أكثر؟

هل سيُضيءُ القمَرُ بشكلٍ أكبَر؟ هل ستنطفئُ أشواقنا ويشتعِل الحُب في قلوبنا ويتعاظمُ في أعماقِنا مرة أخرى؟

كانَ يَكفيني من الحياة لَحظَةً وهي الآن معكِ، ونَظرةً تُعانِقُ نَظرةً، ونَبضةً تُلاحِقُ نَبضةً، لا أطمحُ لأكثرَ من هذا.

أتعلَمُ حينَ ألقاكِ في الخيالِ يُسرّ الفؤادُ، ويخفِقُ في ازدياد، أنا لا أعيشَكِ خيالًا وحُلُمًا وذِكرى.. أن أعيشَكِ واقعًا، واقعًا لا يُفارقُ عَيني.. وأن أشعُرَ بقربِكِ، وأن أطمئنّ لوجودِكِ معي الآن، أن تكوني لي، بِشكلٍ أبدي وهو ما سيحدث بإذن الله.

***

الأم تعرف دوماً

إن كُل ما يَمر في حياة الإنسان هو جُزءٌ من حياتهِ مهما حاولنا وتحدثنا وتفلسفنا لا يُمكن أن نتخلى عن أي جزء، لا يُمكن أن نتجاوزهُ أبدًا، رُبما يمكن أن نتجاهلهُ أو نركنهُ جانبًا لكن يستحيل أن نَزيلهُ أو نمحيهِ من حياتنا أبدًا.

سافرت ذكرى في اليوم التالي عائدة إلى مزرعتها، وبقيت أنا هنا في المدينة لأنني من سكان هذه المدينة؛ لكننا كنا نتواصلًا أو عن طريق الإنترنت، فشغلت نفسي بالبحث عن عمل ولم أنسَ لقاء عميد الكلية في الأسبوع التالي كما اتفقت معه، وقد عرض عليّ وظيفة مدرب زائر حيث أن وظيفة المعيد كانت من نصيب الأول على الدفعة فقط، وقد وافقت؛ فلقد وجدت في ذلك فرصة كي أرى ذكرى أكثر، وفي نفس الوقت وجدت عملًا بأحد مكاتب الاستشارات المالية.

كنت أعمل طوال النهار حتى الساعة السادسة ثم أعود إلى البيت لأرتاح قليلًا ثم أبقى مع ذكرى على الإنترنت حتى وقت النوم حيث أعاود الكرة مرة أخرى في اليوم التالي، أما في العطلة فكنت أتواصل معها من لحظة استيقاظي إلى نومي حيث يمكنني ذلك وأنا مع أصدقائي في النادي أو على الشاطئ، وبالتأكيد لم أسلم من

مشاكساتهم في هذا الشأن، أثناء تلك الفترة كنت أحيانًا أرى شيماء؛ فهي من أهل المدينة، لعل هذا ما كانت تقصده بأنني كنت لها أولًا، يا لها من مجنونة.

استمر الحال كذلك لمدة شهرين تقريبًا حتى كاد الصيف ينتهي ولم يبقَ على الدراسة في أول سبتمبر سوى ثلاثة أسابيع فقط، ففي الجمعة الأولي من أغسطس رأيت شيماء على الشاطئ، ولقد تبادلنا التحية كالعادة كلما رأيتها؛ لكنني وجدتها هذه المرة، على غير العادة، تهرول ناحيتي وقالت:

تهاني يا جهمي! إن رحمة تريد رؤيتك حقًا.

- مَنْ؟

- رحمة! ألم تخبرك ذكرى باسم والدتها؟

- بلى، أخبرتني؛ لكنني لم أكن أعرف أنكِ ورحمة تعرفان بعضكما إلى هذه الدرجة، ثم كيف عرفتي أنها تريد رؤيتي؟

كنت أعرف أيضًا أن ذكرى وشيماء ما زالتا على اتصال كصديقتين؛ لكن يبدو أن ذكرى لم تخبرني كل شيء؛ فلقد أجابتني شيماء قائلة: لقد عدت بالأمس من هناك، ولقد سألتني رحمة عنك كثيرًا.

- ماذا؟ عدتِ بالأمس من أين بالتحديد؟

- ألم تخبرك ذكرى إذًا؟

- تخبرني بماذا؟

- لقد دعتني لقضاء الأسبوع عندها، ولقد قضينا وقتاً رائعًا... رائعًا جدًا.

- وكيف كانت رحلتك؟!

- لقد كنت مع صديقتي فكيف تظنها كانت؟ لقد قضينا وقتًا ممتعًا لم يقطعه سوى مكالماتك لها؛ لكننا كنا بعد ذلك نقضي الليل كله سويًا حتى الصباح.

قطعت حواري مع شيماء فلم أعد أحتمل أن أسمع المزيد فتركتها من دون أن أسلم عليها وانطلقت بسيارتي إلى البيت لأتحدث مع ذكرى، وقد بادرتني بالحديث متهللة:

- حبيبي! لدي أخبار رائعة!
- لم أعرف كيف أرد عليها فالتزمت الصمت وقد أحست هي بأن ثمة خطب ما فسألتني بجدية: ما الأمر؟

- لماذا لم تخبريني باستضافتك لشيماء هذا الأسبوع؟

- لم أجد الفرصة لأخبرك، ثم أنا أعرف أنك يضايقك الحديث عنها.

- إذا كان الحديث عنها يضايقني فمعرفتي أنك أنتِ وهي معًا تضايقني أكثر.

- إنها صديقتي، وقد طلبت مساعدتها في إخبار والدتي عنك، وقد رحبت جدًا بالفكرة، وهذه هي الأخبار التي كنت أريد إخبارك إياها.

- حبيبتي! لا أريد أن أكون متسلطًا عليكِ؛ لكن ألم يكن في مقدورك أن تستعيني بأي شخص آخر؟ ثم لماذا ترغبين في صداقتها؟ ألا تجدين هذا غريبًا بعض الشيء؟ أعني بعد كل ما كان بيننا نحن الثلاثة في العام الماضي!

- يبدو أن هذا الأمر عندك أهم مما أخبرتك به الآن؟

- بل إن ما قلته لي أهم عندي من الدنيا كلها؛ لكنني سمعته من غيرك قبل أن أسمعه منك وهذا هو ما أزعجني.

- آسفة حبيبي! لم أكن أقصد؛ لكنني لم أعرف كيف أفاتح والدتي وقد أخذت تلاحقني وتسألني عن كل هذه الاتصالات المسائية، وقد كانت تنتظر مني أن أكون معها لفترة أطول فأرادت أن تعرف سبب انشغالي عنها، وقد كنت أتظاهر في بعض الأوقات أنني أتحدث إلى شيماء ففكرت أن أستعين بشيماء نفسها لتخبرها عنك؛ فهي تعرفك جيدًا و..

سكتت ذكرى عند هذا الحد فقد شعرت بأنها قالت ما لم يكن جديرًا بالقول، ولم أحب أن أزيد من توتر الأمر فغيرت دفة الحديث بقولي:

- وماذا كان رأيها؟
- ثم أضفت: أقصد والدتك بالطبع.

- لقد فزعت قليلًا في بادئ الأمر كما توقعت، ثم عادت وأخذت تسأل عنك وكيف عرفتك وما مدى علاقتنا وماذا كنا نفعل سويًا وما هو شعوري تجاهك و..

- وبماذا أجبتِيها؟

- لقد قلت لها أنك شاب جيد من عائلة معروفة وأنك متفوق دراسيًا وأن لك مستقبل طيب وأنني عرفتك بالكلية.

- وماذا عن علاقتنا وما نفعله وما هو شعورك تجاهي؟

- لماذا لا تسألها بنفسك؟

- أهي بجانبك الآن؟ دعيني أتحدث إليها.

- تمهل قليلًا! لا إنها ليست بجانبي؛ لكنها تدعوك لقضاء اليوم معنا غدًا.

- ولما ليس اليوم يا ذكرى؟

- أحذرك أن تجعلني أغار منها يا جهمي!

- إذا كانت هي منبع جمالك فبالتأكيد سأقع في غرامها بأسرع مما وقعت في غرامك.

- هذا ما كنت أخشاه؛ فبجوار أمي أنا لا أملك أدنى فرصة.

- لقد كنت أمزح معكِ يا حبيبتي، لقد أحببتك أولًا وسأحبها لأنها والدتك.. موعدنا إذًا في العاشرة صباحًا؟ أم أن هذا سيكون مبكر جدًا؟

- لا، بالعكس، إننا نستيقظ مبكرًا وهذه فرصة لتبقى معي.. معنا لأطول فترة.

- موعدنا في التاسعة إذًا.

- ألم تقل العاشرة؟!

- ألم تقولي لأطول فترة؟!

ضحكنا ثم أنهينا المكالمة على وعد باللقاء في اليوم التالي.

***

رحمة

كنت متشوقًا حقًا للغد؛ فأنا لم أرَ ذكرى منذ شهرين، ولقاءات الإنترنت لا تطفئ شوقًا ولا تريح قلبًا، ثم أنني سأرى والدتها مما يعني خطوة كبيرة في علاقتي بها، حاولت النوم مبكرًا لأكون في قمة نشاطي في اليوم التالي، استيقظت في السادسة وأرسلت إلى ذكرى رسالة مزخرفة تقول صباح الخير.

تحركت في التاسعة، لم تكن المسافة إلى مزرعتها تستغرق أكثر من ساعة لكنني تحركت وعندما وصلت كانت الساعة تجاوزت العاشرة صباحًا، نزلت من السيارة وكانت ذكرى في انتظاري ونظرت إليها كثيرًا ونسيت نفسي تمامًا، فالتفت إلى مصدر الصوت لأرى أمامي صورة مماثلة تمامًا لذكرى لكنها كانت أكبر سنًا وحجمًا، انتفضت أنا من غفلتي ويبدو أن ذكرى قد نسيت نفسها أيضًا، ثم قالت متلعثمة وهي تحاول الهرب من نظرات أمها: أمي.. هذا جهمي!

ثم نظرت إليّ وقالت: جهمي.. هذه أمي.. رحمة!

تقدمت مادًا يدي لأصافح رحمة التي مدت يدها بدورها وأنا أقول:

صباح الخير يا سيدتي! كم يشرفني لقاءك! لقد كنت أتوق لهذه اللحظة منذ فترة.

نظرت إليّ ثم ابتسمت قائلة: مرحبًا بك! أرجو أن يعجبك الإفطار.

ثم أشارت لندخل إلى المنزل، كان المنزل واسعًا جدًا تشعر أن كل قطعة فيه منتقاة بمنتهى الدقة والعناية وتنم عن ذوق فني رائع، لقد نشأت ذكرى في هذا المنزل ومن المؤكد أن هذا الذوق هو الذي أثر في رقتها، وكذلك كانت والدتها.

كانت رحمة سيدة ممتلئة بعض الشيء وإن كان متناسقة القوام، ولقد أخبرت ذكرى بذلك مداعبًا لها فأدهشتني عندما قالت لي أن والدتها لم تتجاوز الأربعين بل هي تبلغ تسعة وثلاثين عامًا بالتحديد؛ فلقد تزوجت قبل أن تبلغ الثامنة عشر وأنجبتها سريعاً لكن والدها مات في حادث وكان عمر أمها عندئذ ثلاثين عامًا فقط، انتهينا من الإفطار سريعًاً، وحاولت المشاركة معهم في رفع المائدة بعد الإفطار لكن رحمة أصرت ألا أفعل، ثم أخذت أتحدث إليها ولم أشعر معها إطلاقًا بأي نفور، وقد كانت مفعمة بالحيوية فتجولت بنا في المزرعة كلها وهي تتعهد كل شيء حولها بالعمل والعناية والرعاية ولم تنسَ بالتأكيد أن توضح لي أن كل هذا ملك لذكرى وفهمت بالتأكيد أنها تحاول إظهار ابنتها بمظهر الفتاة الثرية، ولقد حاولت أن أوضح لها أن كل هذا لم يكن ما جذبني إلى ابنتها.

عدنا مرة أخرى إلى البيت ولم تكن الشمس قد توسطت السماء بعد فجلسنا باسترخاء في شرفة المنزل المطلة على المزرعة وكان المنظر رائعًا، قالت رحمة وهي تشير إلى مساحة خاوية أمام المنزل:

لقد كان والد ذكرى ينوي تجهيز مسبح في تلك البقعة هناك؛ لكنه... لم يجد وقتًا لذلك.

راودني إحساس بالأسى تجاههم نتيجة للعيش وحدهم، قطعه دخول الخادمة لتعلن أن الغذاء جاهز، فانتقلنا إلى قاعة طعام كبيرة بخلاف مائدة الإفطار الملحقة بالمطبخ، وكانت القاعة مجهزة بشكل فخم يشعرك كأنك في أحد القصور، وكان الطعام لذيذًا جدًا فشكرنا الخادمة وابنتها الصغيرة.

انتقلنا بعد ذلك إلى قاعة أصغر لتناول بعض الشاي والكعك، حتى قالت رحمة لذكرى دعينا وحدنا بعض الوقت!

نظرت ذكرى لوالدتها التي قالت لها بصرامة: الآن!

ساد صمت ثقيل بعد انصراف ذكرى حتى كسرته رحمة بقولها جهمي! مما سمعته عنك ورأيته اليوم منك عرفت أنك شاب طيب ولست من ذلك النوع اللعوب؛ لذا سأسألك بشكل صريح ومباشر ماذا تريد من ذكرى؟

- جهمي: بالتأكيد لا شيء، أنا أريدها هي، فقط هي.

- هذه ليست إجابة واضحة.

- أنا أريد ذكرى لتشاركني حياتي ونبني عالمنا معًا لقد عرفت اليوم أنها فتاة ثرية، ولن أقول إن هذا ليس بالأمر المهم؛ لكنني أيضًا ثري؛ لكن كل ذلك لا يهمني، كل ما أريده هو ذكرى، لا يهمني ماذا سنفعل بعد ذلك ما دمنا سنفعله معًا.

- إن ذكرى متعلقة بك جدًا، ولا أريد أن يكون ذلك مجرد مشاعر مرهقة؛ فهي ما زالت صغيرة وخبراتها محدودة، ولقد عرفت أنك كنت أول شاب رأته في الجامعة، ألا يمكن أن يكون ما تشعر هي به مجرد وهم؟

- سيدتي! لن أنفي أن يكون هذا الاحتمال قائمًا، فماذا تقترحين للتأكد من ذلك؟

- فترة انفصال!

- ماذا؟

- إذا كنت تريدها فعلًا، ابتعد عنها قليلًا، فإذا كانت هي أيضًا تريدك ستعود لك، وإن لم يكن كذلك.. تعرف ماذا أقصد.

- وكيف ترين ذلك؟ يجب أن أخبرك إنني قد حصلت على وظيفة مدرب زائر بالجامعة ولن يمكنني تفادي رؤيتها هناك.

- لا مشكلة! فأنا لا أحتاج إلى كل هذا الوقت لأتأكد؛ فأنا أعرف ذكرى، كل ما أطلبه منك هو أن تمنحها بعض الوقت، لا اتصالات، لا إنترنت، وبالتأكيد لا مقابلات.

- وهل ذكرى تعرف ذلك؟

- لن تكون التجربة ناجحة لو كانت تعرف.

- وماذا أفعل إن هي حاولت الاتصال بي؟

- أنا متأكدة أنك ستفكر في شيء ما.

- سأبذل ما في وسعي حتى لا أجرحها.

- جهمي لقد وثقت بك، وأظنك تحب ابنتي فعلًا، كل ما أريده الآن هو أن أتأكد أنها تحبك كذلك، وأعتقد أنك تريد أن تتأكد من ذلك أنت أيضًا، اتفقنا؟

- أظن ذلك، هل أنصرف الآن أم أنتظر لبعض الوقت؟

- انتظر قليلًا ثم قل أي شيء تراه مناسبًا.

- حسنًا!

انتهي حديثنا على ذلك، ولا أنكر أنه قد أحبطني كثيرًا، خرجنا من قاعة الشاي واستقبلتنا ذكرى بنظرات متسائلة، فبادرتها بقولي: ذكرى لِمَ لا تريننني بقية المنزل قبل أن أمضي.

- تمضي! إلى أين؟

- لقد جاءني اتصال منذ قليل من المكتب ويحتاجون لبعض التقارير قبل صباح الاثنين. تجولنا في المنزل قليلًا وحاولت ذكرى أن تسألني عما دار بيني وبين والدتها فأجبتها أنه لم يكن كلام كثير فقط تريد أن تطمئن عليها.

تسكت قليلًا لتعاود السؤال مرة أخرى.

كنت لا أود ذلك لكن كان عليّ أن أوفي بوعدي فاستأذنت للانصراف.

***

لوعة وفراق

العلاقات بين الأشخاص لا يُبقيها الحبُ فقط، العلاقةُ تنمو وتَسمو وَتزدهرُ حين تحتوي على الأمانِ والصدقِ، والثقةِ المُتبادلة وما يُرسخها أكثر التَفاهُم، إذا وجِد التفاهمُ وجد كل شيءٍ في العلاقة، والأهم من كل هذا الاحترام؛ فلا خوفَ مِن ضياعِ الودِّ مع بقاءِ الاحترام، لم أتصل بذكرى عند عودتي من المزرعة ولم أرد عليها عندما حاولت هي الاتصال بي، أرسلت لي رسالة فأجبتها أنني ما زلت بالمكتب، ثم أغلقت هاتفي حتى لا تعاود الاتصال، لم أتصل بها في اليوم التالي أيضًا؛ لكنها اتصلت بي في اليوم الذي يليه وكانت مكالمة مقتضبة بعض الشيء قلت لها أنني كنت مشغولًا ولدي بعض العمل الزائد للفترة مقبلة، في العطلة التالية لم يكن لدي مزاج لأفعل أي شيء فبقيت في البيت لا أتحرك ولم أرد على أي اتصالات، لا من ذكرى ولا من أصدقائي، ثم مر الأسبوع التالي على نفس هذا المنوال.

توقفت محاولات ذكرى للاتصال بي فجأة مما جعلني أتساءل هل كانت رحمة على حق؟ هل كانت ذكرى مفتونةً بي فقط؟

حضر أصدقائي إلى بيتي في العطلة التالية وأصروا على أن أخرج معهم وقد فعلت لكن هذا لم يرفع من معنوياتي بل زادني إحباطًا؛ فقد

حدث ما كان بمثابة ضربة قاضية لي، لقد رأيت ذكرى هناك، دخلنا إلى الملهى وكانت الإضاءة خافتة كعادة المكان، جلسنا وطلبنا بعض المشروبات، ثم لمحت شيماء تدخل إلى الملهى هي أيضًا، وهو ما لم يكن بالأمر الغريب فأنا أراها هنا كثيرًا؛ لكن الغريب أني وجدت معها ذكرى، تواريت مختفيًا لكن شيماء التي كانت تعرف عددًا من أصدقائي نظرت ناحيتهم وأشارت بالتحية لهم فبقيت مختفيًا حتى لا تراني ذكرى التي لم تلتفت ناحية المجموعة إطلاقًا.

أخذت أراقبهم من بعيد، ولاحظت أنهنّ منسجمتان، لم أكن أرى ملامحهن، شعرت في هذه اللحظة أن على أن أعود لنفسي، قررت أن استمتع لكنني لم أستطع فانصرفت، وذهبت إلى عملي في اليوم التالي وكلي إصرار على الاجتهاد، وعدت لتألقي مرة أخرى.

اقترب موعد بدء الدراسة، وقد ذهبت إلى الجامعة وتواصلت مع أساتذتي، ورتبت معهم الأيام التي يمكن أن أعمل بها حتى أوفق بين مواعيد المكتب ومواعيد الجامع، رأيت بعض الطلبة المستجدين كما رأيت أيضًا شيماء التي قالت لي: كيف حالك جهمي؟ لقد رأيناك في الملهى؛ لكن يبدو أنك انصرفت مبكرًا.

- أجل، فعلت، كيف حالك أنتِ؟

- أنا بخير، هل سنراك في العام المقبل؟

- أجل.

لم أكن أود إطالة الحديث فاستأذنت منها منصرفًا، يبدو أن ذكرى فعلًا كانت مجرد مفتونة بي؛ فها هي فيما يبدو قد رأتني ولكنها لم تهتم، أمضيت بقية الأسبوع الأخير من الإجازة بين العمل والخروج كل ليلة إلى أن جاءني اتصال من رقم لم أكن أعرفه في آخر يوم قبل نهاية العطلة.

أجبت الهاتف فجاءني صوت مألوف:

- أهلًا جهمي!

هتفت بلهفة عندما عرفت الصوت: ذكرى، كيف حالك؟

- أنا رحمة.

- لكن صوتك يشبهها كثيرًا، أه! معذرة، كيف حالك سيدتي؟

- لست بخير، ذكرى متعبة جدًا، هل يمكنك الحضور اليوم؟

- أجل سيدتي! سأحضر فور انتهائي من دوام العمل.

أنهيت عملي بأسرع ما يمكن حتى أستطيع الاستئذان مبكرًا وقد فعلت، فانطلقت فورًا إلى المزرعة.

استقبلتني الخادمة التي أخذتني إلى رحمة في غرفة الشاي فسألتها فورًا.

- أين ذكرى؟ في حجرتها، هي لا تعرف أنني اتصلت بك، ولا تعرف أنك آت، أردت أن أتحدث إليك قبل أن أدعك تراها، لقد أوفيت بعهدك لي آخر مرة وهذا يدل على أنك فتى شهم، ولقد أثبتت لي هذه الفترة أن ذكرى تحبك حقًا، لقد ذهبت مع شيماء الأسبوع الماضي كي تراك، ولم أكن أعرف ذلك، ثم عادت من هناك وحالتها سيئة جدًا، فماذا حدث بينكما؟

- لا شيء، لقد رأيتها بالفعل؛ لكنني لم أتحدث إليها؛ بل حاولت الاختفاء منها وفي النهاية انصرفت مبكرًا ولا أظنها رأتني.

- إذًا هذا ما حدث! يبدو أنها رأتك فعلًا، ولاحظت أنك تتصرف بشكل بدا لها طبيعي فعادت وهي في حالة سيئة، لم تخرج من غرفتها منذ تلك الليلة، لقد أمضت الأسبوعين السابقين تبكي حتى دعتها شيماء لتذهب إليها فوافقت، ويبدو أنها كانت تنوي مواجهتك؛ لكن لما رأتك ظنت أنك لم تعد تهتم بها وعادت بالحالة التي وصفتها لك.

- هل أستطيع رؤيتها؟

- أجل؛ لكن قبل أن أدعك تراها أرجو أن تتقبل اعتذاري، أنا أم وكل ما أردته هو سعادة ابنتي. ثم قرعت جرسًا بجوارها فحضرت الخادمة.

- اذْهَب مع الخادمة ستدلك على حجرتها، صعدنا إلى الطابق الثاني فأشارت إلى حجرة في نهاية الممر، توجهت إليها، وقرعت الباب، لم أتلقَ جوابًا فقرعته مرة أخرى فسمعت صوتها من الداخل يسمح لي بالدخول.

فتحت باب الحجرة لأدخل في صمت وأقف متأملًا ذكرى التي بدت شاحبة جدًا وهي تجلس منكمشة على كرسي أمام النافذة التي كانت تطل على الباحة الخلفية، كان المنظر في الخارج ليبدو رائعًا لولا حالة ذكرى التي انعكست على كل شيء حولها فبدى كصورة اختفت منها الألوان، لم تلتفت ذكرى ناحيتي وإنما سألتني: ماذا تريدون مني الآن؟

لم تدرك ذكرى بعد أنني الواقف معها في غرفتها فاقتربت منها بهدوء لأقف بجانبها وأنزل جاثيًا على ركبتي إلى جوارها لتراني للمرة الأولى، نظرت إليّ نظرة خاوية من أي معاني وكأنها لم تراني بعد، ثم بدا وكأنها بدأت تتعرف على الشخص الجاثي أمامها فظهر شبح ابتسامة على شفتيها لم تستطع اختراق حزنها فبدت أجمل حتى وهي في هذه الحالة، خرج صوتها خافتًا ضعيفًا من بين شفتيها: جهمي؟!

- أجل حبيبتي.

اندفعت ذكرى كمن يهوى من حالق مرتمية بين أحضاني تبكي بحرارة فضممتها إلى صدري بقوة وتركتها تخرج كل ما لديها في تلك الدموع وأنا أربت على ظهرها وهي تهتز بين ذراعي من شدة بكائها، لم أمنع

نفسي من أن تسري دموعي أنا أيضًا، فأخذنا نبكي سويًا فكانت دموعنا هي الكلمات التي أخذت تحكي وتشكي آلام الأسابيع الأخيرة.

لمحت رأس رحمة يطل من باب الحجرة ورأيت دموعًا في عينها أيضًا لكنها مضت وتركتنا على هذه الحالة، هدأت ذكرى قليلًا لكنها تركت حضني وبقينا نتحدث حتى غلفتنا ألوان الغروب الذي كان يبدو من النافذة كلوحة رائعة أخذنا ننظر إليه سويًا، أفقنا من كل ذلك على ضوء يغمر الحجرة التي أضاءتها رحمة تتحدث.

- هل ستأكلين معنا الليلة يا ذكرى؟

- لا! أريد أن أبقى هكذا إلى الأبد مع جهمي.

- وإن كنت سآكل معك؟

- إذًا سأكل كذلك.

نزلنا وجلسنا إلى مائدة الطعام وهي بجانبي لا تريد أن تترك يدي، فقلت لها مداعبًا: ألن آكل الليلة؟

- بالتأكيد! ستأكل.. من يدي أنا.

وأخذت تقدم لي الطعام في فمي بيدها متجاهلة والدتها الجالسة بجوارنا، التي كانت تنظر إلينا بمزيج جميل من العتاب والدهشة والرضا.

قلت: حبيبتي! أنت لا تأكلين.

- لقد شبعت عندما رأيتك.

- حبيبتي! لقد حل المساء وأظن أن عليّ أن أذهب الآن؛ لكنني سأراكِ في الجامعة.

- لا، أرجوك.

تدخلت رحمة وقالت:

يمكنك البقاء يا جهمي، فكما قلت أنت، إن المساء قد حل والطريق مظلمة، كما أن ذكرى ستذهب غدًا إلى الجامعة فلِمَ لا تأخذها أنت؟

- كم يسعدني ذلك؛ لكنني لا أريد أن أكون متطفلًا.

تهلل وجه ذكرى وهتفت: سأذهب لأعد الغرفة التي بجوار غرفتي. نظرت رحمة إليها في صرامة: بل سينام في غرفة الضيوف بالطابق السفلي، وقد جهزتها الخادمة بالفعل.

بقينا معًا طوال الليل، نضحك ونتسامر، كانت رحمة معنا تمزح وتضحك أيضًا، ساعدت ذكرى في إعداد حقيبتها وحاجياتها ثم توجهنا إلى حجراتنا، لنستيقظ في الصباح وننطلق من فورنا متوجهين إلى الجامعة، أدخلنا حقائب ذكرى، انطلقت مبكرًا في الصباح

لأصطحب ذكرى في جولة في المتاجر المفتوحة بالمدينة ثم أعدتها قبل الغروب حتى تستعد للدراسة في اليوم التالي.

ذهبت إلى عملي في الصباح التالي، ولم أنسَ أن أطمئن على ذكرى التي بدا صوتها عذبًا، وقد مررت بالجامعة بعد انتهاء دوام العمل لأراها وكانت معها شيماء؛ لكن لم يكن لأي شيء أن يعكر صفو مزاجي بعد ما حدث في اليومين السابقين، استمر بنا الحال كذلك بين العمل والجامعة والخروج في العطلات، وقد كنت آخذها أحيانا إلى المزرعة لنزور رحمة التي كانت سعيدة جدًا بهذه الزيارات المفاجئة، كما أنني دعوت رحمة وذكرى ذات مرة إلى منزل عائلتي في المدينة حيث قضينا وقت لطيف.

ومضى الفصل الدراسي الأول سريعًا كأنه حلم جميل، وظهرت النتائج معلنة تفوق ذكرى وقد مازحتها رحمة بقولها: يبدو أن جهمي قد استغل منصبه وتلاعب في الأوراق فلا أظنك تنجحين بتفوق مع كل هذا التقدير.

ومر الفصل الدراسي الثاني على نفس المنوال، ليبدأ صيف جديد قضينا كل عطلاته ما بين المزرعة ومنزل المدينة.

***

الخطبة

هُنالِك قرارات خـاطئة، ندفعُ ثمنَـها طـيلة الـعُمر، وقرارات صائبة تكفي لإسـعادك أبد الـدهر، وبين الأولى والثانية توفيق الله ومدى قُدرتك عـلى التَفـكير والتخطيط.

قبل أن تنتهي العطلة الصيفية قررت أن أخطو خطوة جديدة في علاقتي بذكرى، فتقدمت لخطبتها بشكل رسمي وتمت الخطبة في حفل أسري صغير في المزرعة حضره بعض أصدقائي وكذلك فاطمة خالة ذكرى وابنتها ياسمين وزوجها وكانوا يعيشون جميعًا في مزرعة مجاورة، كما حضرته شيماء أيضًا، كان مساءًا صيفيًا جميلًا وقد أصرت رحمة أن يبيت أبي وأمي ليلتهما في المزرعة.

بدأ العام الدراسي الثالث، وقضيناه تقريبا مثل العام السابق، وإن كان خروجنا معًا، أنا وذكرى، قد توجه إلى أماكن أكثر خصوصية، ذلك بدأت أرى شيماء أكثر فكانت تشاركنا جلسات المذاكرة وكانت مرحة وودودة وتتمنى لنا السعادة بمناسبة وبدون مناسبة، وبدأت أظن أن طيش المراهقة قد ولى وذهب؛ لهذا لم أرَ ضرر في استمرار صداقتها بذكرى، وجاء الصيف ونحن على نفس المنوال.

وذات عطلة ذهبنا إلى العشاء خارج البيت، انطلقنا إلى ذلك المطعم الشهير بالمدينة وكنت قد حجزت تلك الطاولة المنعزلة، جلسنا وطلبنا العشاء نتحدث في كثيرة من الأمور الجادة أو البسيطة ثم وجدتها تشرد قليلًا فسألتها:

- ما بكِ؟
- لقد سرحت في أمر ما!
- وما هو؟
- لقد رأيتك في تلك الليلة!
- أي ليلة تقصدين؟
- عندما كنت مع.. ، أقصد ليلة انفصالك عن شيماء.
- ماذا؟!
- أجل رأيتك، وخمنت وقتها أنك كنت السبب وراء تلك الطاولة التي ظهرت فجأة بغير حجز، ولما رأيت معاملة العاملين هنا لك الليلة تأكدت من ذلك، لماذا فعلت ذلك؟
- كانت الطاولة محجوزة على كل الأحوال، فلماذا لا يستفيد بها أحد!
- لهذا السبب فقط؟!

- لِمَ تسألين عن أمور بعيدة عنا الآن؟!

- لا شيء.

- صمتت قليلًا ثم عاودت قائلة: أتعرف أنه حاول التودد إليّ ليلتها!
- لم أرد عليها..
- فأكملت: لكنني لم أستطع التجاوب معه.

نظرت إليها في تساؤل فتابعت: كنت مستعدة له؛ لكنني لم أكن مستعدة لك، فلما رأيتك لم أستطع، أدركت لحظتها أنني أحبك.

لم أعرف كيف أرد على هذا الاعتراف الجميل بالحب فالتقطت يدها وقبلتها في حنان فهمت هي معناه فنظرت إليّ مسبلة عينيها في عاطفة واضحة.

***

مضى العام الدراسي ونجحت ذكرى بتفوق كالمعتاد وأردت أن أتمم الزواج لكن رحمة أصرت أن تنهي ذكرى دراستها أولًا فلم يتبقَ سوى السنة النهائية وهي تريدها أن تواصل تفوقها ولقد كانت حازمة في ذلك فلم أشأ أن أجعل من الأمر صراعًا بيني وبينها.

اقترحت ذكرى أن تكون إقامتي في العطلات بالمزرعة؛ لكنني لم أعطها ردًا قاطعًا وإنما قررت أن أترك الأمر للوقت والظروف،

استمرت العطلة الصيفية كالمعتاد أو ربما أكثر قليلًا، وبالرغم أن إقامتي بالمزرعة انتقلت إلى الحجرة العلوية بدلًا من حجرة الضيوف إلا أن رحمة لم تكن تتركني وذكرى إلا عندما تتأكد تمامًا أننا قد نمنا وكانت تستيقظ مبكرًا.

بدأت أناقش ذكرى في أفكارها لمشروع التخرج وكانت لديها أفكار ممتازة لكنها لم تكن لتضمن لها التفوق المرجو فبدأت أقترح عليها بعض التعديلات وكانت شيماء تشاركنا أفكارها هي الأخرى وبالرغم من أن ذكرى كانت دومًا متفوقة عليها أكاديميًا إلا أنه عندما يأتي الأمر للتطبيق العملي فإن شيماء كانت أكثر جرأة وإبداعًا في أفكارها ولعل هذا كان متوقعًا بالتأكيد لطبيعة وشخصية كل من الفتاتين، بدأ الفصل الدراسي الأول وكنت قد وضعت جدولًا صارمًا للقاءتنا بحيث لا تؤثر على دراسة ذكرى ومذاكرتها وبالفعل طبقته بمنتهى الحزم ولقد أعجب ذلك رحمة جدًا إلا أنه بطبيعة الحال لم يرضِ ذكرى، وانتهى الفصل الدراسي الأول وبدأ الإعداد لمشروع التخرج فأوقفت كافة لقاءتنا إلا في حدود مساعدتها على المذاكرة أو الإعداد للمشروع وقد عاونت شيماء كذلك، وكما توقعت فعند تحكيم المشروعات حصلت شيماء على المركز الأول بينما حصلت ذكرى على المركز الثالث وقد قالت شيماء مازحة: من غير المسموح وجود اثنين حاصلين على المركز الأول تحت سقف واحد.

لكن؛ وكما هو متوقع، فقد حصلت ذكرى على المركز الأول في الترتيب العام وبالتالي كانت مؤهلة للحصول على منصب في السلك الجامعي

وهو ما يعني المزيد من العوامل المشتركة بيننا، في أثناء ذلك كله كنت أخطط مع رحمة لمفاجأة، فقد أعددنا العدة ليكون حفل الزفاف في اليوم التالي مباشرة لحفل التخرج وكانت مفاجأة رائعة.

في حفل التخرج تسلمت ذكرى شهادة التفوق وقد مازحها عميد الكلية الذي كان مدعوًا لحفل الزفاف في اليوم التالي بقوله: مبروك يا سيدة جهمي. وقد أكد علينا في اليوم التالي وهو يهنئنا بألا ننسى إرسال أوراق ذكرى للعمل قبل منتصف أغسطس فأخبرته أنني جهزتها كلها بالفعل ولم يتبقَ سوى بيان التقديرات فقال لي أن أرسل كل ما لدي إلى مكتبه وسيتولون إضافة البيان من شئون الخريجين وتسليم كل شيء للإدارة فشكرناه على ذلك.

كان حفل الزفاف رائعًا حيث أعددنا خيمة كبيرة بيضاء في باحة المزرعة تتسع لمئتي شخص فكانت تبدو للقادم من بعيد كأنها سحابة بيضاء قابعة على الأرض، حضر أصدقائي وكنت قد جهزت لهم جميعًا سترات رمادية وبها خطوط سوداء لامعة وشريط أسود حول الوسط وكذلك مجموعة من صديقات ذكرى وعلى رأسهن بالتأكيد شيماء، قسمت الخيمة إلى نصفين من الموائد بينهما سجادة بيضاء ممتدة من مدخل الخيمة في ناحية المنزل لتصل إلى الطرف الآخر منها حيث طاولة ممتدة على شكل قوس مجهزة للعروسين وأصدقائهما.

حضر المدعوون في الثانية عصرًا.. ثم اتخذ الكل مقاعدهم كما كان مخططًا وكانت الموسيقى الهادئة تنبعث من كل مكان إلى أن كانت الساعة الثالثة تمامًا لتبدأ موسيقى خاصة لتعلن استعداد العروس للدخول إلى المكان، فالتفت الجميع إلى مدخل الخيمة لتصدر من البعض آهات الانبهار؛ فلقد وقفت ذكرى في ثوب زفاف أبيض بلون الثلج مطرزًا بورود فضية دقيقة تلمع تحت الأضواء كأنها النجوم، فظهرت في أحلى صورة رأيتها، لم تكن تضع أي تبرجًا فغطى بياضها الطبيعي على لون الفستان وعلى رأسها تاج فضي لامع وتمسك بباقة من الورد الأبيض فبدت كأميرة من أميرات الأساطير التاريخية أو ملاك يقف في حياء.

وقفت ذكرى على هذه الصورة لمدة دقيقة وكان وراءها صديقاتها الست في صف واحد حتى تحولت الموسيقى إلى نغمات منتظمة فبدأت الفتيات يتحركن بتناغم للخلف ثم للجوانب ليظهر ذيل طويل للفستان بلغ طوله بضعة أمتار تحمل أطرافه الفتيات، تحركت ذكرى في تأني متقدمة على السجادة البيضاء فبدت كأنها تطفو لا تسير ومن ورائها الفتيات يتحركن في خطوات ثابتة منتظمة حتى وصلت حيث أقف في الطرف الآخر أمام الطاولة يقف خلفي على شكل جناح واحد متدرج ستة من أصدقائي.

فاجأتني ذكرى بحركة لم تكن ضمن المخطط فحين وصلت إليّ توقفت على مسافة متر مني لتتوقف الفتيات وراءها، أطرقت ذكرى إلى الأرض في حياء وثنت ركبتها قليلا أمامي فحذت الفتيات حذوها

وبقيت كذلك فأدركت فورًا ما على فعله فانحنيت لها وفعل كل أصدقائي مثلى، مددت يدي لألتقط كفها الرقيق وأرفعه لأقبله ثم اعتدلت في وقفتي لأرفعها هي أيضًا لتلتقي أعيننا، ثم تبتعد ذكرى عني إلى طرف الطاولة تتبعها الفتيات وأتحرك أنا إلى الطرف المقابل يتبعني الفتيان لنلتقي مرة أخرى عند وسط الطاولة حيث كرسيين كعرشين، فساعدت ذكرى لتجلس على كرسيها ثم جلست أنا إلى جوارها ثم جلس أصدقائي على مقاعد ست من ناحيتي وكذلك فعلت صديقاتها من ناحيتها.

أخذ الكل يرقص ويمرح واستمتع الجميع بوليمة الحفل الذي استمر لبضع ساعات قبل أن يبدأ المدعوون في الانصراف ولم يبقَ إلا والداي وشيماء وأحد أصدقائي كنت قد طلبت منه البقاء حتى يوصلهم إلى البلدة، تمنوا لنا حياة سعيدة وانصرفوا هم أيضًا.

كان مخططًا أن نبيت في المزرعة لننتقل بعد ذلك إلى منزل المدينة لمدة يومين قبل أن نسافر لقضاء شهر العسل، صعدت رحمة معنا إلى الطابق العلوي فتوجهت مازحًا إلى تلك الغرفة المجاورة لغرفة ذكرى التي نظرت إليّ في دهشة لتقطع رحمة كل ذلك فتقول: لن يبيت أي منكما في غرفته المعتادة.

ظهر التساؤل علينا فأكملت وهي تغمز لنا: ستحتاجان سريرًا أوسع الليلة.

لم يبدِ على أي منا الفهم فتوجهت إلى غرفتها، فتحتها وهي تشير إلينا بالدخول لنجد الحجرة معدة إعدادًا بديعًا فكانت الورود والأزهار في كل مكان، على الأرض وعلى المقاعد وعلى السرير بل ومعلقة من السقف، اندفعت ذكرى إلى أمها تقبلها وهما تبكيان ومددت يدي أربت على كتف رحمة وأشكرها فقالت: أنت الآن ابني. ثم أكملت وهي تنسحب مغلقة الباب قائلة: حافظا على بعضكما البعض، بارك الله لكم.

***

زواج سعيد

وقفت مع ذكرى نتأمل الحجرة الرائعة ودموعها ما زالت تنساب، ثم مددت أناملي ألتقط تلك اللآلئ المتحدرة على خدها فنظرت إليّ وقالت: إن أمي تحبني جدًا.

- أعرف! لقد كانت تعد كل شيء خلال الشهرين الماضيين بمنتهى العشق.

- آه، لقد تذكرت!

- ثم لكمتني في ذراعي: أهكذا نبدأ حياتنا سويًا؟! كيف تخفي عني موعد زواجنا!

- حسنًا! إن كان لا يعجبك، دعينا نلغي كل شيء.

تقدمت ناحيتي في دلال قائلة: وهل ستقدر على الابتعاد عني؟

فهجمت عليها محتضنًا إياها وهمست: مستحيل.

ثم أكملت: والآن! دعينا نبدأ حياتنا.

وأخذت أقبلها على خدها ورأسها فأخذت تحاول الفرار منى فأمسكت بها ونظرت في عينيها فقلت لها: أتعرفين؟

- ماذا؟

- عندما أكون مَعكِ يَلزمُني بعض القلوب الإضافية لأستوعبَ كُلّ رِقة العَالم المُختبئِة فيكِ يا ذكرى، وفي كُل مرةٍ أنظر بها إلى وجهكِ أشعُر بأني أعيش حياة جديدة، وعندما تضحكين يصفّق قلبي كجمهور يُصفّق لكاتب أكمل كتابة رواية، أنتِ قِطعة من قلبي وجزء مني كل شيء برفقتك يغدو أكثرَ أملًا ورحابة.

حتى قلبي يتسِع ويتمدد كالسماء معكِ، إلى التي عرفت على يديها الحب، ولم أشعر بالحب إلا معها، إلى التي تستحق كل الحب، أنا معكِ أحب الأيام وأحب الحِياة وأحبكِ، وأحبك دائمًا بشكل مُتباهي يجعل من قلبي قلبًا عظيمًا بكِ، أحبكِ كما أنتِ، بسيطة كالماء، لابثة في ثيابي كعطر، غير آبهةٍ بالمصير، وغائبة عن النوم وعن الصحو، ساهرة، غافية وقلقة، تجمعين كل التناقض، مثل كلّ السائرين في نومهم، مُستعدة للمشي معي إلى الهاوية، وعلى وجهكِ ابتسامةُ الظّفر.

- تَصرّفات الإنسان تَتحدث عَنه بطريقةٍ أفضَل مِن كلامهِ بكَثير في بعض الأحيان؛ لكن أنتَ يا جهمي تصرفاتك وحديثك معي يجعلني أحبك أكثر.

- وجبَ على الإنسان تَقديرَ النِعم؛ لأن النِعمَ الّتي لا تُقَدر تَزول فلا يبقى لها في حياتهِ أثر، وبعض النِعم لا تُعوض عَنها نعمٌ أخرى، وأنا لا أريد أن تزولي من حياتي.

قضيت مع ذكرى ليلتنا في المزرعة ومنها إلى منزل المدينة ثم انطلقنا إلى مصر حيث حجزت أسبوعًا لنقضيه في مدينة الإسكندرية مدينة الحب والجمال والتاريخ، حضرنا فيها عرضًا شيقًا للأزياء لمشاهير المصممين كما تجولنا على شواطئ الإسكندرية، ثم إلى القاهرة لزيارة أهرامات الجيزة والمتحف المصري وقلعة صلاح الدين، وقضينا أمسية رائعة نمشي في شارع المعز ونستمتع بالمقاهي القديمة والمساجد القديمة، بينما كنا نقضي ليلنا نرتوي من كأس الحب الذي لم نكن نشبع منه مطلقًا.

عدنا بعد أسبوع من السعادة إلى ديارنا لنقضي يومين آخرين قضيناهما في المدينة، شارفت الإجازة على الانتهاء وكان عليّ العودة إلى العمل في بداية الأسبوع التالي فأخبرتني ذكرى أنها تريد أن ترى والدتها قبل انتهاء الإجازة، وبالرغم أن هذا قد أحبطني قليلًا إلا أنني لم أمانع فذهبنا إلى المزرعة في صباح اليوم التالي لتستقبلنا رحمة استقبالًا رائعًا وقد سارعت إلى إعداد الطعام بينما انطلقت مع ذكرى نتجول في أرجاء المزرعة.

قضينا اليوم التالي في المزرعة لكن كان يجب أن ننطلق عائدين إلى المدينة قبل الغروب فنعود لبيتنا لأنطلق في الصباح إلى العمل، وقد

حاولت رحمة جاهدة أن تقنعني بالمبيت والانطلاق من المزرعة في الصباح؛ لكنني كنت أريد أن أرتاح فوعدتها أن نعود إليها في عطلة نهاية الأسبوع، كنت أخطط لنهاية أسبوع مختلفة لكن لم يكن أمامي إلا هذا الوعد لتتركنا رحمة نذهب.

بالفعل انهمكت بشدة في عملي طوال الأسبوع بينما ذهبت ذكرى إلى الجامعة لتتابع أوراقها للانضمام إلى هيئة التدريس.

في يوم العمل الأخير كنت قد اتفقت مع ذكرى على أن نسهر معًا ثم ننطلق في الصباح إلى المزرعة، وكانت أمسية أخرى جميلة، وقد اتصلت بنا رحمة لتسألنا عن سبب عدم حضورها فأخبرتها ذكرى أننا سنصل المزرعة في الغد، بقينا في المزرعة طوال عطلة نهاية الأسبوع ثم عدنا إلى بيتنا مرة أخرى على وعد بالعودة في العطلة التالية.

***

التجربة

تونس/تونس

15/أبريل

4:00 عصرًا

عندما تُحِب شخصًا بصِدق ترى فيه كُل شيء وترى الآخرين وكأنهم لا شَـيء، تتعجّب كيف أودعَ الله بقلبك كُل هذه المحبّة وكيف يجعَل الحُب قلبك بالغ الاتساع وكأنما سيأوي الدُنيا وما فيها، وتسير بأقدامك وكأنّ خطواتك تحليقًا واسعًا في سماءٍ واسعة لا تُدركها حدود ولا يوجد بها قيود، خرَج جهمي وذكرى للتوّ من المقاهي، خطواتهم متمهّلة، هذا ما رصدَتُه العيون التي تراقِبُه منذ سنة كاملة بعد زواجهم تشابكت أيديهما، وتبادلا ضحكات خفيفة.. لماذا قد يراقِبُ أحدٌ رجُلًا عاديًا كجهمي، وامرأةً لطيفة كذكرى؟

هذا ما لا يعرفه أحدٌ حتى الآن.. المُهم، بينما هما يسيران في أحد شوارع مدينة تونس، التقطت ذكرى صورة جميلة للمكان ونشرتها على حسابها على انستجرام، ثمّ رنّ هاتف جهمي.

- نعم؟
- يوسف يتحدّث كيف الحال يا جهمي؟
- أهلًا يوسف، بخير!
- هل لديكَ وقت؟
- نعم، هل هناك شيء ما؟
- اسمع يا صاحبي، اتصل بي أحد المعارف، وأخبرني عن حاجته لمتطوعين لخوض تجربة اجتماعية فريدة من نوعها، بطابع سياحي، وفكّرت بما أنك قلتَ لي من فترة أنّك ترغب بالسفر وخوض التجارب المجنونة فقد يناسبك الأمر، وستكون جميع التكاليف على حسابهم فما رأيك؟
- يا سلام! تحمّست أين المكان؟

نظرت إليه ذكرى مُستفهمة فابتسم بينما يشدّ على يدها بلُطف.

- المكان وتفاصيل أخرى ستعرفها منهم؛ لكن على حد قوله هو مكان جميل، شاهدت صورًا له؛ ولكن نسيت اسمه، على أي حال سأرسل لك الأوراق المطلوبة والعنوان، أعدّها وتعالَ غدًا، إن أعجبك الأمر تنطلقان في الرحلة، وإلا فلا بأس ترفضان الأمر ببساطة.ً

- حسنًا يا صديقي اتفقنا.

أنهى المكالمة، ووصلته بعض المعلومات على واتساب، أخبر جهمي ذكرى باندفاعٍ وحماسٍ عن هذا الأمر، وهي لا تُريد بتعقّلها وتأنّيها أن تُفسد عليه حماسه، وفي النهاية هي في قرارة نفسها سترفض؛ لأن الوقت غير مناسب لخوض رحلة سفر، لا بد من الانهماك في حياة طاحنة لتدبير الأمور والعيش بأكبر قدر من الاستقرار.

***

رحّب المُدير وليد الجالس وراء المكتب بجهمي وذكرى.

بينما كان أحد العاملين يُجري حوارًا مع يوسف في مكتب آخر ليُسرّع إجراء المُعاملات.

- تفضلا بالجلوس.

قال وليد.

- يُسعِدُنا جدًا أنكما هنا معنا اليوم، هذا شرَف كبير لنَا.

تعارف الطرفان لدقائق ثم قال وليد: في الحقيقة نحنُ نُجري تجربة اجتماعية غريبة بعض الشيء للعيش في منطقة نائية بعيدة كل البعد عن المُدُن، تتمتع بطابع عثماني وريفي قديم، وبيوت دمشقيّة، مع جيران لُطفاء، وأنشطة منظمة وممتعة، ستكون جميع التكاليف مؤمنة؛ السكن، الملبس والمشرب والمأكل، وحتى أماكنكما الشاغرة سيتم تعويضها بخُبراء من ذات المجال بالتعاقد مع الأماكن التي تعملون بها، مُدة التجربة شهر، ونعدكم بالكثير من المُتعة والراحة النفسية، ستخرجون منها أشخاصًا آخرين على ما نعتقده.

كان جهمي يهزّ رأسه مبتسمًا، يختلس النظر إلى وجه ذكرى التي يظهر أنّها تشعُر بالملل، وبينما يعرضُ وليد بعض الصور للمكان على جهمي، طُرق باب المَكتب، مدّت ناهد رأسها واستأذنت بأدب: هل يمكن أن أتحدث مع ذكرى لدقائق؟

خرجَت ذكرى من المكتَب، سلمت على ذكرى بحرارة، قالت ناهد بتعجّل:

- هل وقّعتما العقد؟

- كلا ليس بعد لا أظنّ أنّي سأوافق.

- جيّد لأنهم يقومون برهن الممتلكات مقابل الالتزام بالعقد!

- يرهنونها!

لماذا كل هذا؟

- يعني ربما ليتأكدوا من أن ما يُنفقونه لن يذهب سدى.

- اسمحي لي أن أعود، تعرفين جهمي يحب التجديد والمرح، وقد تأخذه الحماسة فيوقّع دون أن أخبره رأيي في الأمر.

- أراكِ قريبًا.

عادت ذكرى، وعلى ما يبدو كان ظنُّها في مكانه.. وقّع جهمي على مجموع الأوراق وسلّمها لوليد الذي قام بدوره بإرسالها لمكتب آخر ليقوموا بنسخها وتدقيقها.

همست له بغضب:

- جهمي! هل وقّعت العقد!

- نعم هل هناك مشكلة؟

- هل قرأت البنود يا جهمي.. بالله عليك هل قرأتها..

وقف جهمي منزعجًا بينما طلب من ذكرى أن تخفض صوتها وتتمالك أعصابها، طلب العقد، فأعاده أحد الموظفين بعد أن قام بنسخه.. الشروط الجزائية قاسية، والبنود صارمة، وبعض التفاصيل لم يطلع عليها، وقد وقّع

على جميع الأوراق وأعطى الأوراق الثبوتية، والأمر بالنسبة إليه منتهي بالفعل.

- لا عليكِ يا ذكرى هذا عقد شكليّ، هكذا قال وليد، فقط إن تركنا المكان ستحدث جملة من الأمور ويمكن حل جميع الإشكالات بالتراضي.

- لقد رهنت كل شيء يا جهمي ماذا أن اضطررنا للمغادرة لماذا لم تأخذ رأيي على الأقل!

- توقفي رجاءًا، الآن أُلغي الاتفاق وتنتهي الأمور، ليس عليك التحدث بهذه اللهجة معي.. صمتت ذكرى وهي تأكل نفسها ما بين تأنيب الضمير والقلق.. ولمّا صرّح جهمي بتراجعه لوليد، كان ردّه مفاجئًا: نعتذر يا أستاذ جهمي أنت والدكتورة سترافقاننا غدًا ومجرد التراجع بعد توقيع العقد يلزمكم بالكثير من التعويضات.

- لكننا لم نأخذ شيئًا بعد.

- وقّعتما العقد، لا يمكن التنازل الآن، أنت تعرف نحن لسنا أطفالًا صغارًا لنتراجع، ربما هذا أول درسٍ ستتعلمه هُنا؛ عليك أن تتأنّى، وتدرس القرارات، وتشارك الآخرين بها.

كان هذا صادمًا.. ومثيرًا للريبة، ماذا يقصد بـأول درس!

لماذا لم ينبّهه يوسف من قبل؟

فكرة التراجع الآن صارت من الماضي.. لكنّ الواضح أن جهمي وذكرى على وشك خوض تجربة غريبة الأطوار!

فماذا ينتظرهما من أحداث؟

***

طريق البداية

وقفت الحافلة من طراز رفيع أمام بيتِ جهمي وذكرى في تمام الرابعة مساءً، استقبلاها بتثاقل، وكانا يحملان معهما بعض الملابس والمتعلقات الرئيسية المهمة، وعلى الرغم من الانزعاج الشديد الذي كانا يشعران به إلا أنهما قررا أن قضاء ٣٠ يومًا في تجربة ما، أمر سينتهي في النهاية وعليه فالصبر مفتاح الفرج، قررا بالأمس أن لا يلوم أحد الآخر، وأن اللوم لا يُقدم ولا يؤخر وأنه مهما حدث لن يُفسدا الرحلة بالقلق من المُستقبل فكما يقول جهمي: "قد لا نعيش حتى الغد، ليس علينا أن نقلق بشأنه" وبينما يصعدان إلى الحافلة همَس جهمي لذكرى مداعبًا: أنا سأجلس إلى جوار النافذة.

- يكفي أنّك ورطتنا بهذه الرحلة المقعد بجوار النافذة لي لا تحلم بغير ذلك!

سمعهما عجوزان فهمس أحدهما للآخر: يا لهما من طفلين!

سارت الحافلة لمُدّة ساعتين تقريبًا، ثم وصلوا لاستراحة على جانب الطريق، ونزل الناس، منهم من يشتري الطعام، ومنهم من يصلي، والبعض نزل كي يريح قدميه من الجلوس الطويل، ولمّا فرغوا من

شؤونهم، سمعوا صراخًا غاضبًا من أحد المُسافرين، فوجئوا جميعًا أنّ حافلةً غير التي أقلّتهم أول الأمر تنتظرهم الآن، حافلة قديمة بلونٍ أزرق فاتح مما يعني على الأقل أنهم صاروا بلا متاع!

كاد أن يُجن جنون جهمي، إن أكثر شيء يكرهه هو أن يتم التلاعب به، أو أن تُفرض السيطرة عليه ويبدو أن الحالة العامّة للمسافرين كانت السَّخَط!

هدّأهم منسّق الرحلة ببراعة، جميع العاملين في هذه التجربة كانوا مفوّهين، امتصّ غضبهم بينما يطمئنهم أن متاعهم في أمان، وأن الأمر وما فيه أنّه يمنع اصطحاب أي ملابس أو أدوات من المكان الذي أتوا منه.. ومن يرغب في صعود الحافلة، عليه أن يفرغ جيوبه أيضًا قبل أن يصعد.. وكل من يرفض سيبقى في الاستراحة التي ستُغلق أبوابها بعد نصف ساعة.

شعرت ذكرى بالخطر، والخوف غزا ملامح الجميع بما فيهم جهمي.. هل هذا اختطاف أم ماذا يحدث هنا؟

في ذات اللحظة وصلت رسالة من جهاد -صديق جهمي و يوسف أيضًا- إلى هاتف جهمي المحمول كتب فيها:

- جهمي العزيز.. بلغَني أنك قررت خوض التجربة، ستحدث أمور عجيبة ومفاجئة ومزعجة بعض الشيء؛ لكن لا تقلق، ستسير الأمور على ما يرام. أراد جهمي أن يتحقق حاول

الاتصال به لكن لا يوجد ردّ، هتفَ منسّق الرحلة: سننطلق خلال خمس دقائق!

تبادل الجميع النظرات، لن يظلوا واقفين هُنا، لا بُدّ من أن ركوب الحافلة سيكون أقل سوءًا من الوقوف في الخلاء، بدأ الناس يصعدون بالفعل، ويستسلمون للحقيقة وتركوا ورائهم كل شيء.

- تعرفين يا ذكرى تُذكّرني هذه الرحلة على سوئها بهجرة الرسول مع أصحابه، كم يبدو صعبًا أن يتنازل المرء عن جميع ممتلكاته فجأة.

- عوضهم الله بخير كثير بعد فقدهم هذا ما يحصل عادةً، تفقد ترضى ثم تنال العوض.

- قد يكون العوض فتحًا!

- نعم أيها الفاتح، كما تقول دائمًا لا فتح من غير هجرة.

عشر ساعات إضافية من السفر المُرهق، الساعة الآن السادسة صباحًا، أطلقت الحافلة صوتًا لإيقاظ الركّاب.

وقف منسّق الرحلة في الحافلة وقال لقد وصلنا بسلام والحمد الله، أرجو منكم الآن أن تنزلوا من الحافلة؛ حتى نوصلكم لمساكنكم الجديدة.

نزل جهمي ونزلت بعده ذكرى، وهما مشدوهان تمامًا بالمشهد الذي شاهداه بينما يقودهما شخص نحو منزلهما الجديد، شاهدا الطيور وهي تحلق برويّة حول مئذنة مسجد قريب، ريفٌ وديع تضجّ فيه الحياة، نساءٌ يحملن قدورًا فوق رؤوسهن، وأُخريات يغزلن أقمشة ملوّنة، دكاكين صغيرة تبيع بعض القطع النُّحاسية، رجالٌ يقودون عربات، بساتين مليئة بالخضراوات.. صغار يلعبون بالطين.. مارّة ينشدون بعض المدائح النبوية.. حياة بدائية جميلة!

قطع انسجامهما صوت مُرافقهما: دكتور جهمي لقد وصلت، هذه الدَّرجات ستأخذكم للبيت، نرجو لطفًا أن تلتزموا بالقوانين الموجودة في باحة المنزل، ومخالفة أي قانون منها يعني قضاء يومٍ إضافيّ هنا.. لديكم صندوق بريد عند الباب الداخلي، نرجو أن تتفقدوه باستمرار، ستصلكم هناك بعض المُهمات التي يتوجّب عليكم إنجازها.

ورحل الرجل.

صعدا الدرجات وهما ينظران إلى الشجيرات الصغيرة ويبتسمان، يبدو أن الأمر ليس بهذا السوء، المنزل من طابقين على ما يبدو، من الطابق الثاني يتضح أن هناك ملاءة بيضاء تتحرك حركة حنون من الشرفة وصوت لامرأة يصدر من هناك.. نظرت المرأة إليهم، وضحكت: يا إلهي لقد وصلتما.

قالت بمرح: أنا قادمة.

يبدو من ثيابها أنّها مُدبّرة المنزل هنا.. امرأة سمينة في أواخر الخمسينيات من عمرها.

- أهلًا ذكرى.

قالت وهي تشدّ على يدها بكلتيّ يديها.. وضعت يدها على صدرها لتؤدي التحية لجهمي ثم قالت: هناك على الطاولة التعليمات، لا تنسَ تفقّد البريد يا بنتي الحُلوة.

قالت وهي تقرص خدّ ذكرى بلطف، وغادرت المنزل، أمسَك جهمي التعليمات وبدأ يقرأ: التزام التعليمات بشكل جيد يعني الحصول على مكافآت، والمخالفة تعني بقاءً في المكان لمدة أطول.

1. الأمل عبادة؛ لكن بالله فقط، والعمل عبادة لو كان خالصًا لوجهه، والحذر واجب.
2. جميع الصلوات تقام على وقتها وفي المسجد.
3. أنتما الآن معدمان، عليكما العمل لتحصيل رزقكما، على جهمي الاستيقاظ في الخامسة صباحًا والعمل في البُستان القريب من مخبز العم محمد.

4. ذكرى ستتفقد البريد يوميًا، وتنزل إلى مستوصف الحيّ تعمل به كممرضة من الساعة الثامنة صباحًا.

5. هناك أشخاص يخوضون التجربة أيضًا، قد تكون مهمتهم أن يوقعوكما في بعض المشكلات، كونا حذرين، أي مشكلة تتسببان فيها تعني عشر أيام إضافية من العمل.

6. عليكما تبديل ثيابكما والالتزام بالأزياء الموجودة بداخل الخزانة في غرفة النوم.

7. يمنع أن يخدمكما أحد، عليكما الاعتماد على نفسيكما.

8. تحصّنا.. قد تصادفان فتنًا خطّافة، من شهوات إلى شُبهات، وقد يتعدّى الأمر ذلك!

9. لا يوجد هنا إنترنت ولا يمكن استخدامه.

يدور جهمي حول البركة الصغيرة في الباحة وهو يعيد قراءة التعليمات مرة تلو مرة.. أما ذكرى فقد دخلت لتستحمّ وتُبدّل ثيابها، حدّث جهمي نفسه: المرء يخاف من المجهول دائمًا لأنه لا يعرف ما الذي سيحدث حقًا، معلومات بسيطة قد تسكب السكينة في صدره.

تنهّد ورفع نظره للسماء.. ثمّ فجأة!

ملأ صراخ ذكرى المكان!

ما الذي حدث!

ولماذا صرخَت بهذه الطريقة؟

هل أصابها مكروه، ماذا حدث!

***

فوبيا القطط

سمع جهمي صراخًا لذكرى؛ فدبّ الرعب في قلبه، وراح يتخبّط بين الأبواب.. أين أنتِ يا ذكرى!

المكان الجديد لا يجعله يتعرف مكانها بسهولة.. لكنه وجدها في النهاية وجهها مصفرّ وقواها خائرة.. نظر إلى المكان ثمّ هزّ رأسه بتذمّر: يا إلهي يا ذكرى.. فوبيا القطط مرة أخرى؟

لا تقولي أن كل هذا الصراخ لأجل هذه القطة السوداء الجميلة.

حملها جهمي بهدوء وأخرجها من الغرفة، وأخذ ذكرى من يديها وطمأنها وهدّأ من روعِها وقال: عليكِ أن تواجهي مخاوفك يا ذكرى.. لا أظنّ أن وجود القطة في المنزل عبثيّ، أشعر وكأنهم يعرفون أن هذا سيقلقك.

ردّت بصوت مرتجف: هل هذا يعني أنها ستبقى هُنا؟

لقد أفسدت ثوبي الزيتيّ الجديد بأظفارها.. يا لها من قطة!

نظر جهمي للثوب.. لقد تركت القطة علامة لن تنسى عليه لكنه ثوب جميل.

- يليق بكِ الطراز القديم جدًا، ويجب عليكِ معرفة أن التعرض لأشد المخاوف ومواجهتها يقلل الخوف منها، هذا ما أظن أنهم يريدون منكِ تعلمه.

لقد مرّ أسبوع لطيف على كليهما، كانا يلتزمان التعليمات بشكل جيد، وحظيا ببعض النقود، ولولا الشجار الذي شبّ بين جهمي وجارهم لما تأخر رحيلهم عشر أيام.. في كل يوم كانا يجدان في البريد آية، يصادفانها في يومهما فعلًا!

لمّا صادف جهمي رجلًا يحاول اختلاق جدال يؤذيه فيه، تذكّر آية "وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا"

ولمّا نزلت ذكرى للمستوصف، ووجدت من النسوة هناك كيدًا فطبطبت على قلبها آية: "وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرًا"

- تعرفين يا ذكرى؟ هذه الرسائل جعلتني أتنبه أن حفظ القرآن في الصدور، يعني منبّهات لا تنتهي للكثير من الأفعال، كان هذا ليجعلنا أكثر وعيًا ويقينًا، القرآن معجزة يا ذكرى، معجزة جميلة.

تعجبت ذكرى، لكم هو صادق في قوله هذا فعلًا يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت بالتوحيد.

وصلهما اليوم بريد بآية:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ"

هل يُعقل أن يُصدّقا أي شيء؟ سيتبينان بلا شك، غادر جهمي لعمله فجرًا ولكم انشرح صدره وهو يقرأ الآية المُعلقة عند مدخل البُستان "بلدةٌ طيبة وربٌّ غفور"

استطاع كسب القلوب سريعًا هناك.. بحس الدعابة وبالإحسان الذي يمتلكه.. وعلى الرغم من العمل الشاق إلا أن الأمر كان يعود عليه بنفع عظيم.

أما ذكرى فقد سعت في المستوصف في تطبيب آلام الصغار القادمين للعيادة، لقد رُزقت حُب الأطفال؛ لكنها لم تُرزَقهم، مرّ على زواجها بجهمي سنتان.. حاولا فيها جاهدين بمساعدة العلم والطب والوسائل الحديثة أن يُنجبا طفلًا، ينعم بينهما بحياة كريمة؛ لكن كل شيء باء بالفشل! يئسا من الفكرة واستسلما للواقع.. كان كل شيء يسير على ما يُرام، حتى سمعت ذكرى إحدى العاملات في المستوصف تقول: وكما أنّ هُناك رجالًا في البُستان، هناك نساءٌ جميلات، وقلّما خرج رجل هناك بغير زوجة منهن.. حتى إنّهنّ ليقمن بالحيل التي لا بُدّ أن يضعف أمامها كل رجل، الحمد الله أن زوجي ترك العمل هناك.. وبصوت كان يصل لذكرى التي لامست ضيقًا في نفسها من هذا الحديث.

- حتى أنهم يقولون أنّ هدير بعد وفاة زوجها توشك أن توقع بجمالها ودلالها أحد العاملين في البُستان.

- صحيح لقد سمعت.. سمعت أنه لم يُنجب، وأن زوجته تمنعه من الزواج بأخرى يا لها من أنانية.. كيف تحرم رجلًا بصلاحه من ولدٍ يحمل اسمه!

- تقصدين الفاتح؟

- بلى!

سرَت القشعريرة في جسد ذكرى، وأحست بوجنتيها تشتعلان، وبقلبها ينبض بقوة، غادرت المستوصف، عادت لمنزلها على عجل، بدلت ثيابها، وأخذت معها غطاء وجه أبيض وسارت إلى البُستان متناسية الآية التي وصلتهما اليوم، والتعليمات التي قرأتها، تركت كل شيء ورائها وسارت بأنفاس تحترق.. وصلت والدموع تتلألأ في عينيها، والأصوات بداخلها تتوالد، هل كان عليّ أن أكون طبيبة أطفال؟

ما هذا القدر الصعب يا الله لِمَ قد تحرمني من شيء هو أحب ما يكون إليّ؟ هل كان عليَّ أن أحيا في قلق دائم من أن يتزعزع مكاني عند جهمي، من أن تُهدم مملكتي.

البُستان الذي وصلت إليه يحمل طابع الجنّات، المزارعون يعملون فيه بلا توقف، والنساء يقدمن الطعام للمزارعين ويحملن على

رؤوسهن جرار الماء البارد، أطفال يتراشقون بثمار الطماطم، خيل يرعى، وبقرة تصدر صوتًا مضحكًا، وأمٌّ تُرضع طفلها الصغير بينما تحمل في يدها مُصحف.. وهناك في ظل شجرة قريبة، كان جهمي يستريح من عمله.. لقد كان وحده.

تنهدت وهي تشعر بارتياح، أرادت أن تذهب لتخبره بما حصل لها.. لكن لحظة!

هو ليس وحده..

من هؤلاء..

أطفال..

يضحكون يلاعبهم جهمي بمرح أحدهم سرق طربوشه الأسود، والآخر عانقه من الخلف بقوة، وطفل صغير جلس في حجره، يبتسم جهمي في وجه الطفل ابتسامة حنونة حزينة!

هذا ما شعرت به ذكرى.

لا لا.. من هذه؟

اقتربت امرأة جميلة منه، شعرها فاحم طويل انسدل خطئًا من حجابها، ويبدو أن الأطفال أطفالها وأنها من طبقة فقيرة، أخذت الصغير من جهمي، وناولته صُرّة طعام، وتركت إلى جواره جرّة ماء..

ولما غادرت، وقفت ذكرى خائبة الأمل، وسمعت صوت جهمي وهو يقول دون خجل بصوته المرح: وداعًا هدير الحلوة!

فكأنما صُب بفعله هذا الحميم في جوفها.. أدركت أن كلام فتيات المستوصف كان صادقًا ربما ما كان عليها أن تعوّل على أي شيء، أرادت أن تهرب، أن تصرخ، شعرت بحرارة في حلقها من الدموع، ودّت لو تفرغ جرار الحُزن بشهقة، سارت بخطى سريعة، نظرت لباب البستان بتيه، وضعت يدها على قلبها النابض بالأسى، وأنفاسها تتقطع من البُكاء، لم ترد للحظة أن تلتفت، لقد سكنها خوف فظيع لم تشعر به طوال السنوات الثلاث التي عاشتها في كنف بجهمي لا تعرف ماذا ستفعل الآن.. ولا لمن ستأوى.. لكنها أرادات أن تهرب فقط أن تهرب.. ومسحت بأكمام ثوبها الزيتيّ دموعها النديّة، وسمعت صوتًا من ورائها يُنادي ذكرى!

***

المفاجأة

فلاش باك.

كان جهمي يستريح من عناءِ يومٍ شاق، جلس في ظلِّ شجرة، يتنعّم بصوت الطبيعة، ويأخذ شهيقًا عميقًا، نحلتان مرّتا من فوق رأسه، صوت الماء من الينبوع القريب، حفيف الشجر، والنسيم العليل كُلّها أمور كانت تُثير شجنه، وتبعث على الاسترخاء تمتم في سرّه ما خلقتَ هذا باطلًا سُبحانك! وفجأة، قفز طفلٌ بعفوية إلى جواره وخطف طربوشه وهو يقول: دكتور جهمي لقد اشتقت لك كثيرًا.

ضحك جهمي: يا إلهي، ما الذي جاء بك إلى هُنا؟

ومع طفلين صغيرين اقتربت امرأة جميلة بشعر فاحم انسدل عن طريق الخطأ من حجابها إلى حيث جلس جهمي. ابتسم لها.

- أنتم هنا أيضًا؟

حيّاهم بحرارة وهو يشعر بالعَجَب: متى عُدتم من السفر!

لم نرَكم منذ أكثر من خمس سنوات، قال لابنة أخيه الكبير وصبيانه الثلاثة.. ابتسمت هدير ووضعت له صرة طعام وأخبرته أنّها أعدتها له ولذكرى، شكرها ووعد بزيارة مسائية يزورهم فيها.. ثمّ ودّعها قائلًا: "وداعًا هدير الحلوة!"

في الوقت ذاته صدر صوتَ حركة قريبة كان هناك امرأة تُغطي وجهها، تسير بسرعة باتجاه باب البستان، ثوبها لونه زيتيّ.. لحظة!

هذه العلامة على ثوبها جعلت جهمي يعرف أنّها ذكرى.

وقف حينها ظانًا بأنّها لم تعرفه، فأسرع في المشي ورائها وناداها: ذكرى!

تجمّدت في مكانها وقبل أن يصل إليها.. التفتت إليه وعيونها مليئة بالدموع..

- ذكرى ما بكِ!

أولته ظهرها وأطلقت ساقيها للريح، إنّها تهرُب!

- ذكرى انتظري لحظة إلى أين تذهبين أنا جهمي تعالي هنا لحظة.

بينما كان البستان شبه فارغ، شاهد بعض الرجال جهمي يلاحق ذكرى، فظنّوا أنّه ربما يريد أن يؤذيها أو يوقع بها فاقترب منه ثلاثة منهم وقال أحدهم: دع الفتاة وشأنها أيها الأحمق!

ثم ودون سابق إنذار وقبل أن يوضّح أي شيء سدّد أحدهما لَكمة لعينة، وقام الآخر بتسديد ضربة إلى معدته بقسوة.. توقفا أيها الغبي إنها زوجتي، قال جهمي وهو يلفظ أنفاسه بعناء.

- هل تظنّ أنّنا أغبياء لنصدق هذا!

- أقسم لكما.

قطع كلامهم زامور سيارة شُرطة قريبة ترك الرجلان جهمي وابتعدا عن المكان مُسرعين، وقف جهمي بصعوبة، وتابع السير نحو ذكرى، توقّفت سيارة الشرطة قريبًا منهما، وبصوت عالٍ قال أحد الضبّاط: سيّدة ذكرى توقفي مكانك أنتِ رهن الاعتقال.

صُدِم كلاهم وأسرع جهمي أكثر ما هذه الأحداث الغريبة ما الذي ارتكبته ذكرى لا بُد أن هناك خطأٌ ما، ولماذا تهرب مني؟

شاهدَ جهمي امراتين من الشرطة النسائية يقيّدن ذراعيّ ذكرى خلف ظهرها بينما تحاول في هلَع أن تفهم سبب الاعتقال.

- لزوم الثغر يا ذكرى مهم، لقد تسببت مغادرتكِ دون استئذان بخسارات عظيمة، ولديكِ الكثير من التُّهَم الأخرى.

كان جليًا أن الألم ينبعث من صدر ذكرى بغزارة.

يتفشى فيها دون أن تملك أدنى سيطرة عليه، عيناها الدامعتان لؤلؤتان نجمتان لامعتان بشكل ملفت.

كانت تسقط بين يديهم مثل ورقة سقوطها فيه رفرفة كأنه جناح طائر، تهذي مثل طفل حديث الولادة تبكي كأنها لا تعرف لغة غير البكاء، راعه المشهد، فلم يتمالك أعصابه.

- حسنًا توقفوا جميعًا لا أريد ممتلكاتي التي رهنتها أعيدوا لي ذكرى حالًا لم تعد تروقني هذه التجربة الحمقاء، أريد المغادرة على الفور.

ابتسمت الشرطية بسخرية، أدخلت ذكرى لسيارة الشرطة، ومنع الضابط تدخل جهمي الذي حاول جاهدًا أن يخلّص زوجته منهم.

انطلقت السيارة هكذا دون أن يستطيع منع أي شيء، كان جهمي عاجزًا تمامًا.

مشى متخبطًا إلى منزل أخيه كان هذا المكان الوحيد الذي يمكنه اللجوء إليه في نظره، قصّ له الحكاية، فهدّأه ربيع أخاه وقال: للأسف سرّ الخلاص من هذا المكان لا يملكه إلا رجُلٌ واحد، وكما قلتُ لك سابقًا، لقد علقنا هنا منذ ٣ أسابيع، وبالكاد نستطيع العيش.

- من الرجل! دعنا نذهب إليه الآن، لا أعرف حتى أين أخذوها أكاد أُجنّ والله!

- المُشكلة أنّنا لا نعرف له قرارًا أو مكانًا نقصده يرتاد المسجد غالبًا، يرتدي بذلة سوداء تُزيّنها خُيوط ذهبية، تتوزّع على صدره ومعصميه ولا تغادر يده مسبحته ذات الخرزات الرمادية، وللأسف لا أعرف اسمه لكن لا عليك سنبحثُ معًا غدًا.

استضافوه في غرفة نوم معدة للضيوف، عينه ثقيلة من ضربة اليوم، كيف تتوالد المصائب، وضع يده على رأسه، القلق يؤلم معدته، ذهنه مشتت، تنهّد وهو يفكر، وضع كل أمله على ذاك المخلوق، يظنّ الآن أن نجاته وذكرى على يد رجل لا يعرف عنه شيئًا، تسللت إغفاءة صغيرة لجهمي، دخلت طفلة صغيرة عليه، شعرُها كأنّه جنات ألفافًا، عمرها عام ونصف، أمسكت بيده بلُطف، قالت: بابا.

فأجاب: يبدو أنكِ أخطأتِ، أنا لا أبناء لديّ.

- لا تقل هذا بابا جهمي أنت أبٌ لطيف.

- أنتِ ابنتي من ذكرى؟

أشارت بالنفي وابتسمت ثمّ أشارت لرضيع ينام بوداعة على السرير، استيقظ فزعًا لقد كانت خمس دقائق فقط كان حُلمًا، مسح العرق عن جبينه ورفع رأسه أمامه، تمامًا زيّنت الحائط لوحة بخط الثُّلُث مكتوب عليها "النَّومُ إذا لم يُعْطِ بُشرى لا يُعوَّلُ عليه."

تسارع الأحداث

دامَ البحث عن الرجل الذي قد يساعد جهمي بتخليص ذكرى قرابة الثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع، وصل ساعي البريد إلى جهمي وأخبره أن ذكرى خضعت لبعض التحقيقات وأنها ستمثُل أمام المحكمة في صباح الغد، مع بعض التفاصيل حول الجلسة وطلب لحضوره.

يا إلهي من كان يتخيّل أن الأمور ستصل إلى هُنا!

ولحُسن حظٍّ جهمي بينما هو عائد من صلاة المغرب مع محمّد، صادفا الرجل الذي يُظنّ أن يساعدهما انكبّ عليه جهمي يحدّثه باندفاع وانفعال، حتى أن الرجل لم يفهم شيئًا، ولطيب أصله، طبطب على كتف جهمي ثمّ قال له مواسيًا:

- أظنّ أنّك خلطت الأمور ببعضها لشدة انفعالك هذا عنوان بيتي، يعرفه القلة فاحفظ السرّ توسّمتَ فيكَ خيراً بحسن ظني بالله، زُرني بعد صلاة العشاء، وآخذ منك زبدة القول حينها..

أشار جهمي بالإيجاب ولزم المسجد حتى يطمئن أن الرجل لن يفوته.

في المكان المغلق كان آخر شيء تتذكره ذكرى هو ملامح جهمي الخائفة، هي الآن في غرفة مغلقة، حاولت أن تقف وتتبع المخرج في المكان المُظلم، فسمعت صوتًا تألفُه، تلمست الجدار، وأصغت السمع.

- نعم أفهمك.. لكن أظنّ أنّ ذكرى متوعكة، وأنا أشعر بالقلق يا يوسف.. متى سيجتازان الاختبار؟

ماذا تقصد.. بالاختبار؟

ولمن ذلك الصوت؟

أرادت أن تتحرك مرة أخرى، فأحسّت بيدٍ تُمسك كتفها من الخلف. ذهب جهمي مع ربيع إلى منزل الرجل الغريب، غريب، ربما هذا اسم يليق به، هكذا كان يتحدث جهمي إلى نفسه، جلسا في مجلس بسيط على الأرض، وبينما هما ينتظران، دخلت فتاة صغيرة بعمر سنة ونصف تقريبًا، كانت تحاول التوازن وهي تمشي، نظرت إلى جهمي وابتسمت، ثم قالت بصوت طفولي يكاد لا يُفهم: بابا؟

سرَت قشعريرة باردة في جسد جهمي، واتسعت عيناه وبدا عليه الارتباك، هذا الوجه الطفولي الذي رآه في حلمه قبل عدة أيام، اقتربت الفتاة من ربيع وعانقته، نظر جهمي إليه مُستفهمًا مع دخول صاحب المنزل ضحك مع البنت وقال: مكة ادخلي عند الخالة في الداخل، سأل جهمي ربيع: من هذه الفتاة ومن تكون؟

- مسكينة، هذه الفتاة تُركت أمام بيتي يوم وصلنا، وأرضعَتها زوجتي يعني هي ابنتي بالرضاعة لكن لسوء الحال وكثرة العيال، طلبت من هذا الرجل أن يؤويها عنده ففعل، يُقال هناك الكثير مثلُها في منزله.

ابتسم الرجل وقال؛ كيف أساعدكم إذًا؟

سمِع منهما القصة ثم ابتسم وقال: لقد هربتَ من اختبارك، أنت تحاول حلّه من خلالي، وأنا لن أساعدك آسفًا عليكَ أن تجتاز هذا وحدك.

البحث، القلق، الأمل، سقف التوقعات العالي سقط على رأس جهمي، لا تُعلّق أملك بأحد من البشر، وعندما وقعت في مأزق لجأت إلى إنسان، سعيُك بالأسباب، مُلقيًا كل ثقتك بها، سيخونك لا محالة، قد يصدمك كما حدث الآن.. هزّ جهمي رأسه وهو يفكّر في حلّ.

التفتت ذكرى في فزع.

من!

شيماء!

ماذا تفعلين هنا؟

- أنا هنا من أجلك.

- من أجلي؟

- لقد أصبتِ بصداع شديد الفترة الماضية، وأخبروني أنّك تعانين من الكثير من الأحلام المزعجة.

- بلى.

قالت وهي تشعر بالتعب.. وضعت شيماء يدها على رأس ذكرى وقالت: أنتِ مصابة بالحُمّى يجب أن ترتاحي يا ذكرى وضعك يقلقني.

- في هذا السرداب؟

- سنخرُج منه قريبًا.

سأخبرك بطريقة الخروج لكن الأمر متعلق بنفسك أنتِ.

قالت شيماء بينما تضيء المكان.

- بنفسي!

سألت ذكرى بتعجّب!

- بلى.. أنتِ تهربين من نفسك يا ذكرى أنا أعرف ذلك.

شحب وجه ذكرى.

- هذا غير صحيح.

- لديكِ مشكلة وهناك تراكمات كثيرة، تعلق بالآخرة، الدنيا تملأ عليكِ قلبك!

- أنتِ مخطئة.

- لماذا إذًا كل هذا الانفعال حينما وجدتِ جهمي مع هدير..؟

- كيف عرفتي؟

- أجيبي سؤالي.

- ماذا تظنين أنّ عليّ أن أفعل!

- تتحققي أولًا قبل الحكم على أي شيء، وتثقين بالله ثانيًا، إنه لا يحمّلك فوق طاقتك، تحسنين الظن بجهمي ثالثًا لأنه عشرة عمر؛ ولأنه يحبك، ولأنه مؤمن صادق أليس كذلك!

ثمّ منذ متى نعطي الدنيا كل هذه الحفاوة؟ لقد خشينا أن تموتي حقًا، خفنا عليكِ فاعتقلناكِ لأنك فرّطتِ في حق قلبك، هذه جريمة لأنكِ خرقتِ كل القوانين لأجل القال والقيل، سنُصلح هذه الأمور مع طبيب في الأعلى ثم بعدها ستصبحين حُرّة، ستلتقين بجهمي قريبًا عليكِ ألا تخبريه بأي شيء اتفقنا؟

هزّت ذكرى رأسها وهي تشعر بضيق تنفس شديد.

بداية النهاية

حُكم على ذكرى بشهر اعتقال بسبب بعض تهم وُجّهت لها في المحكمة، ولم تدافع عن نفسها، التقت بجهمي، سُمح لهما أن يجلسا معًا، كان قلب جهمي يخفق بقوّة كطير حبيس في قفصه الصدريّ، عيونه كانت تحاول التركيز في عيني ذكرى اللتين كانتا تهربان، تبادلا الحديث شرحت له الموقف، وتقبّل الأمر.

- أنا مستعد للتضحية بكل شيء لأجل أن نخرج من هنا يقلقني ابعادكِ عني، ما رأيكِ أن نتنازل؟

- لا، لا نستطيع فعل ذلك الآن لأني محتجزة.

كان ردُّها صادمًا، يبدو أن علينا البقاء بعض الوقت

أمسكت بيده، طبطبت عليها ونظرت في عينيّ جهمي وقالت: سنتجاوز لا تقلق.

نبّههما مسؤول المكان أن الوقت انتهى، وأن على جهمي المغادرة، ثم ناوله ورقة بمواعيد الزيارات المسموحة.

تعانق جهمي وذكرى، والضيق يأكل قلبيهما وافترقا مجددًا.

عاد جهمي لمنزله، ليكتشف أن الحياة ستمضي من الغد كأن شيئًا لم يكن، هي لم تتوقف بتوقفه أصلًا، يؤلمه بُعد ذكرى، أخذ ثيابها وتركها إلى جواره ليطمئن.. ليطمئن؟

منذ متى لم يصلِ صلاة حقيقية "يطمئن بها!"

متى آخر مرة دعا فيها من قلبه وتوجّه لله بصدق؟

متى آخر مرة دندن فيها بالآيات، وعاش في معانيها؟

هل كان يعبد الله على حرف؟ ثم ما إن غابت ذكرى ترك كل شيء من يديه وتوجّه بكلّه إلى قِبلة أُخرى!

من أين يبدأ؟

قام فزعًا ذهب للمسجد في طريقه لمح عجوزًا مُعدمًا يجلس في قارعة الطريق، رمقه بشيءٍ من الود نزل إلى حيث يجلس، أخرج كل ما في جيوبه وقال:

سامحني يا عم لا أملك غيرها، كان يعلم أن الصدقة تُطفئ غضب الله.. ابتسم الرجل باندهاش بعدما شاهد القطع النقدية.. توكئ على عكازه بفرح، انهمرت دموعه بينما يطبطب على كتف جهمي باندفاع ثم قال له: لله دُرّ التائبين يا بني.

وغاب عن الأنظار، دخل جهمي المسجد كان خاليًا إلا من بعض المُصلّين ونفس جهمي كانت خالية إلا من بعض الشوائب قال: الله أكبر.

ولأول مرة كان الله أكبر في نفسه من كل شيء، ثارت المعاني في صدره فبكى، بكى وهو يستشعر لأول مرة فكرة دُعاء "المضطر" وينتظر بلهفة من الله قوله "أمّن يُجيب" و "يكشف السوء".. وقال لي أمنيةً ها هُنا يا الله، هي وَأنا وطفلةٌ تُشبِهُنا تملِكُ عينايَ وعِنادي وفؤادَكِ يا فؤادي.. شاهده الرجل الذي التجأ إليه في أول مرة.

- جهمي؟

- أهلًا أيها الغريب.

- ما غريب إلا الشيطان سأساعدك بطريقة للخلاص من كل الذي يحدث معك.

أراد جهمي أن يقوم من مكانه متحمسًا كما جرت العادة إلا أنه تنبّه أن لا نافع ولا ضارّ إلا الله، ورفض المساعدة، ابتسم الرجل أدرك أن جهمي تجاوز هذا الاختبار بنجاح.

- صباح الخير يا ذكرى كيف حالك؟

- صباح النور أنا بخير الحمد الله.

- كيف تَرين الجلسات التي نعقدها معًا؟

- مفيدة أشعر بتحسّن لولا توعّك صحتي الجسدية.

- سلامات لعل الأمور تنتهي قريبًا.

- إن شاء الله.

- أخبريني قمتِ بالمهمات التي عليكِ أداؤها؟

- أجل أفرغت الكثير مما في نفسي على ورق أشعر بارتياح.

- جيّد آخر مرة تحدّثنا عن إسقاط الناس من حسابك كيف تجري الأمور؟

- أتذكر بصراحة أظنّ الأمر صعب على شخص مثلي لكنَّني أحاول.

- لديكِ مهمّة، ترينَ هذا الزيّ خلفك؟

- أجل.

- سترتدينه وستكونين غدًا في خدمة امرأة مسنّة سيعلم الكثيرون ذلك.

- أنا سأعمل كخادمة؟

- ترينَ هذه ال (أنا) نريدُ أن نكسِر كبرها، ونُسقط الناس من حسابها حقًا.

دُعى جهمي على عشاء عند الرجل الغريب، مستر غريب كما يسميه جهمي، ولا يفهم لماذا لا يحمل اسمًا!

شاهد مكة مرة أخرى فأسرّها في نفسه تسرق قلبه هذه الشقية، أمسك بيدها لأول مرة، يا لها من طفلة لطيفة وعلى ما يبدو هي أحبّته أيضًا.

سأل: لماذا آويتها؟

- أنا صاحب مؤسسة هُنا تُساعد على احتضان الأطفال مجهولي النسب.

- ماذا تقصد بالاحتضان؟

- تولِّي رعاية طفل مجهول النسب، دون نسبه إلى المُحتَضِن، على أن يكون الأبوان لم يُنجبا، ويتم إرضاع الطفل من أحد أقارب الزوج أو أقارب الزوجة حسب جنسه.

ابتسم جهمي لمعت في ذهنه أفكار كثيرة!

اتبعت ذكرى تعليمات الطبيب، سارت على الخطة، ونفّذت مُعظم المهمّات تُعالِج نفسها، تضبط أفكارها الآن، تستطيع أن تعقل ما يحدث من حولها، تُنفّس وتشخّص أمور قلبها وحدها، تزكّي النفس بالتخلية والتحلية!

كم تبدو الحياة الآن أكثر رحابة!

جهمي سيزور ذكرى اليوم يحمل لها اقتراحًا نبضه مرتفع.

- صباح الخير يا ذكرى.

- صباح النور يا عيوني.

احتضن جهمي ذكرى بمرَح وقال أريد أن أُخبركِ بشيء مهم جدًا.

- أخبرني.

- اسمعي لو سألتُكِ هكذا دون مقدمات لأني لا أجيدها.

ما رأيك بأن تُصبحي ماما توافقين؟

انتفض جسدها في مكانه.

- أصبح ماما؟ كيف؟

- نحتضن طفلًا!

صمتت لوهلة، الحمد الله أنها عالجت أمور الـ(أنا) والكبر، وإلا ربما لرفضت، كيف تحتضن طفلًا مجهول نسب!

الحمد الله أسقطت الناس من حسابها وإلا ما كانت لتنظر للأمر أبدًا من زاوية رؤوفة.

- نستطيع فعل ذلك؛ ولكن كيف لم أفهم؟

- نستطيع، تنطبق علينا شُروطهم هنا، أمور متعلقة بعمرهما، وعمر زواجهما، قدرتهما الانجابية، والمادية.

- هل لدينا فرصة؟

- نعم!

ضمّت نفسها وهي ترتعش.. سنصبح أبوين حقًا؟

- إن تيسّرت الأمور سنكون كذلك، ذكرى أريد أن أُسرّ لكِ بأمر هل لدينا وقت؟

- نعم لدينا وقت أخبرني.

- تعرفين في بعض الأحيان كنت أرى في عينيكِ لومًا لله على هذا الشرّ الذي ابتُلينا به، أقصد عدم قدرتنا على الإنجاب.

- أستغفر الله تُبت يا جهمي والله.

- أعلم شعرت بذلك أيضًا لكن لم أقل بعد ما أردت قوله.

- أخبرني.

- تعرفين في بعض الأحيان نجدُ الخير يتممّ الشرّ، والشرّ يتممّ الخير.. أو أن التقاء شَرَّين يستحيل خيرًا!

يعني رُبما حُرمنا حقًا ولم يكن في قدَرنا أن نُنجب أطفالًا ربما لم يُكتب لنا أن يكون لنا أبناء من صُلبنا.

هذا شر.. شر مؤلم بالنسبة لنا؛ لكن تأملي معي، هناك طفلة، جميلة، قُدّر لها أن تحظى بأبوين سيئين أنجباها بطريقة حرام، ثم تركاها على أحد الأبواب، لتكون بلا أب أو أم!

لتغدو وحيدة منذ اللحظة الأولى وهذا شرّ أيضًا صحيح؟

- صحيح.

- لو قمنا باحتضان طفلة يستحيل الشرّان لـخير وهذا الخير جميل وعظيم عند الله يا ذكرى، وبهذا نرى التكامل والتمازج بين الشر والخير، التكامل بينهما، كيف أن كل واحد منهما يعطي المعنى للآخر حتى الشرّ نعمة!

حشرج صوته وهو يحاول أن يضبط انفعاله ويقول سبحان الله يا ذكرى ما كنت أتخيّل الأمر بهذه الصورة قط سُبحان الحكيم، ودمعت عينايّ ذكرى أيضًا.

سأل جهمي:

- إذًا ما قولُكِ؟

- برأيي ستكون أبًا جميلًا جدًا.

يبدو أن النهايات الجميلة قد تكون هنا أيضًا في بعض الحكايات التي نعيشها، فوجئ جهمي لمّا علم أن المكان الذي لبثا فيه قرابة الشهرين هو مشروع يوسف المُسمّى بـمكة، كل الأحداث كانت مدروسة ومرتبة الهدف كان تزكية نفسيهما.

يا لها من فكرة!

يا له من معسكر!

الاختبارات الدنيوية انتهت لكنّها ربّت فيهما أنهما في اختبار قد لا تظهر حكمته في الآن واللحظة، ما أجمل العودة للوطن، العودة إلى تونس والعودة إلى البيت، والعمل؛ ولكنّ الأجمل أن مكة الصغيرة تعيشُ الآن معهم، فتاة مشاغبة مثلهما تمامًا.

لم يحملا عبء إخبار الآخرين عمّن تكون، لم يعبأ أحدهما بأن تلاقي يومًا مشقّة قبول نفسها وهما يقدّرانها كل هذا التقدير.. مرّت شهور كثيرة، مكة تكبُر، وجهمي يصغر، يحملها على ظهره ويضحك بينما يجري في المنزل وهو يصدر أصوات مركبة فضائية وضحكات مكة تُنير عتمتيهما.

تنظر إليه ذكرى وغادرت غرفة الجلوس تركت جهمي ومكة يلعبان، دخلت دورة المياه ثم خرجت بعد مُدة ونظرت لجهمي ووجهها أصفر ويدها ترتعش بشدة، وقف جهمي قلقًا وتحولت ملامحه من الضحك إلى الحزن الشديد: وقال أنتِ بخير يا ذكرى؟

بدمعة وابتسامة: أنا حامل يا جهمي!

- أخيرًا بعد طول غياب سأكون أب يا ذكرى، إنه أسعد يوم في حياتي، أنتِ الوَحِيدة التِي تَمتلِكُ ذلِك الوَجه الذِّي يَبعثُ الدِفءَ فِي عَالمِي، وَمِن خدّيكِ تَنْجِمُ كُلُّ الأزهَار، ولأنَّكِ أكثرَ مِن أنْ يَحتويكِ كتاب أو رواية أو حتى قصيدة، صرتُ أفيضُكِ حَتىٰ فِي حماقاتِي؛ فَبِسببكِ صارَّت أغلاطِي قَصائِد، وأنني في كل مرةٍ أنظر بها إلى عينيكِ أرى بها مجموعة شمسية كاملة مليئة بالكواكب والنجوم، أنا الذي أستشعرُك معي في كل نفَس وفي كل ابتسامة وفي كُل خطوة وفي كل شيء.

أتعلمين أن للذكرياتِ قَلبًا يَنبض كل يوم يا ذكرى، إلّا ذكرياتي معكِ تَنبض كُلّ حين، إن لَكِ قلب يضخ حبًا، وشرايينَ تَقوم بنَقلهِ لسائر أنحاء الجَسد، في بعض الأحيان يأتي على بالي دائمًا سؤال؛ وهو كَيف تَحتمل دائرة وجهِكِ الصغيرة كُل أنواع الجَمال بِهذا التَناسق العَفوي الرهيب؟!

أتعرفين أن وجهكِ كُلما تأملتهُ شعرتُ أن قلبي غارقًا بالحُب!

لقد أرعبني جَمالُكِ وبشدة، أنتِ مُختلِفة بِلا إنصاف، أنتِ غير تقليدية، حتّىٰ عندما تكونين عَادية تبقين مختلفة، وفي النهاية لا أملك سببًا واضحًا يدفعني لهذا الحب، أحبّك كل يوم.

- يا أعظَم أقداري يا جهمي، يا مُلهِم كُل الروايات، وبَطل كُلِ الملاحِم، الاستثناء بدُنيا القواعِد، القاعِدة بعالَم الاستثناءات، الافتراض في واقع الثوابِت، والثابِت مهما تفاقَمت المُتغيرات، عـاشَت معي وبداخِلي، تترائى لي في صَحوي ونَومي.

- لقد كثرت التشبيهات في عالم الحب يا عزيزتي، كأن يقول شخص لآخر أنتِ قلبي أو وتيني، أو روحي كلّها تشبيهات مستعملة وعادية وما عادت تفي بغرض الحب في الوقت الحالي وباتت باردة، ولهذا لم أكن أنوي وصفكِ بأي لقب مهترئ فقلت لكِ بأنكِ عَصَبي أتعلمين ما معنى هذه الكلمة يا ذكرى؟

- لا أعرف يا جهمي

- لأن العصب يلغي جميع وظائف الجسد عندما ينقطع يا ذكرى، فيصبح القلب قطعة متصلبة، كما تهرب الروح بعيدًا عن الجسد الخالِ من الأعصاب، هل يصبح للوتين حاجة بغياب العصب؟ بالطبع لا.

- لذلك لم يجرفني السيل كغيري، ولم أقل لكِ بأنكِ وتيني، أنا جثة هامدة من دونكِ عزيزتي، أنتِ عَصبي يا ذكرى.

***

تمت

بحمد الله

مـــــدينة الأدبـــــــاء

للنشـــــر والتـــــــوزيع